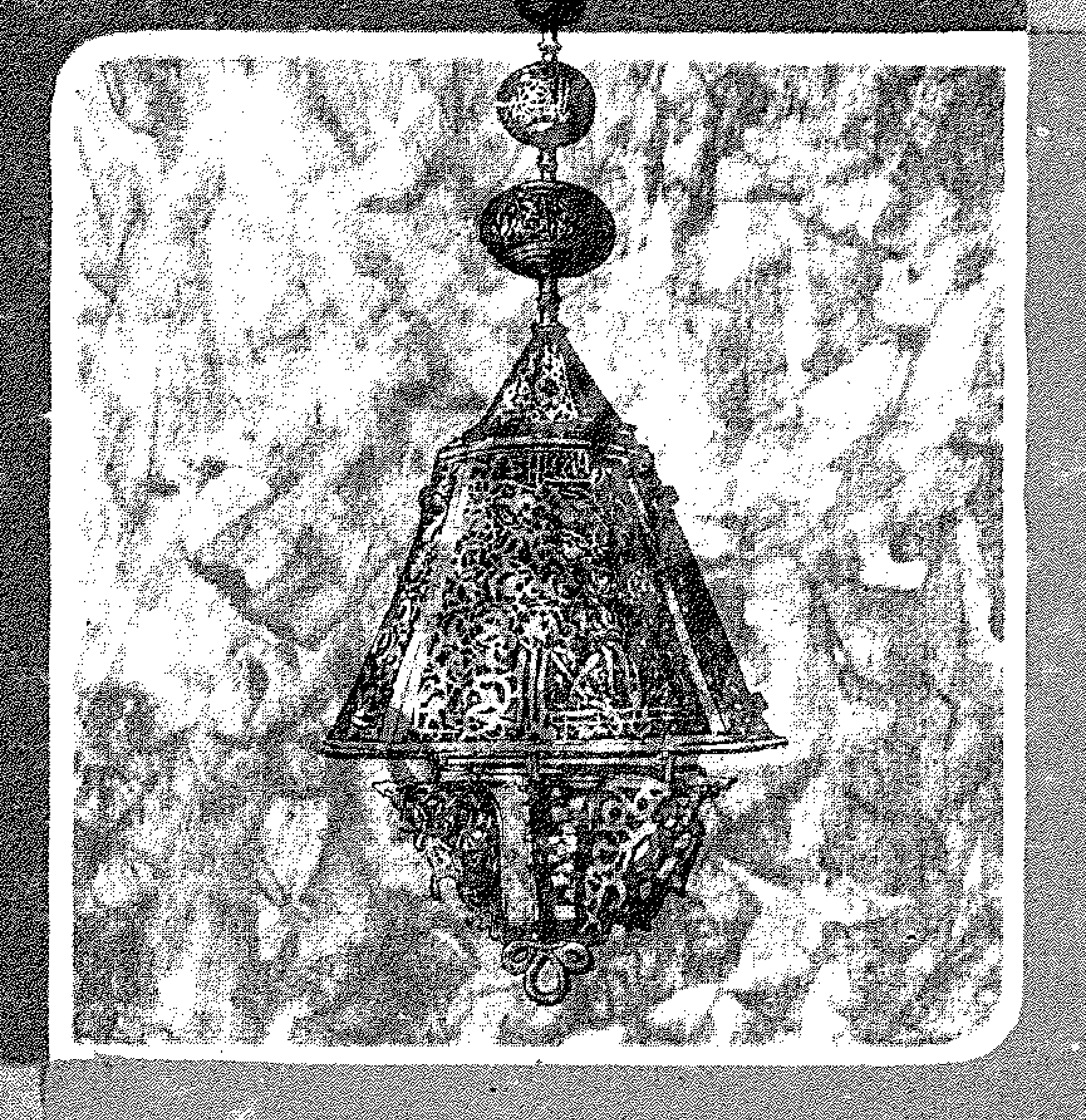
حلمي محمد القاعود



حراس العقيدة

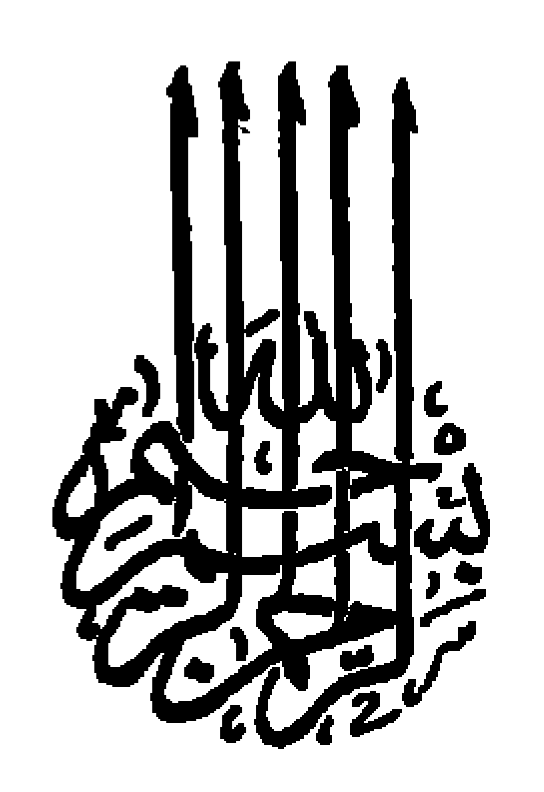
فصول عن اليقين والدعوة

دار الاعتصام



حراسِ العقيدة

«فصُول عَن اليقين والدعوَة»



دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى
تليفون ٣١٧٤٨

اهداءات ٢٠٠٢
أ/ثروت اباظة
القاهرة

حلمي محمد القاعود

حراس العقيدة

«فصول عن اليقين والدعوة»

الطبعة الأولى
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م

دار الاعتصام

عن اليقين والدعوة

باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه أجمعين . . وبعد . .

فإن العالم الإسلامى اليوم ، وفى خضم حركته المضطربة والطافحة ، يحتاج إلى مزيد من الوقفات المتأملة فى صبر ودأب ، لمتابعة حركته ومسيرته ، ثم التساؤل من آن لآخر إلى أين ؟ وبصورة أخرى : متى يبلغ المجتمع الإسلامى الكبير هدفه الأسمى ، فى التحرر والوحدة والرقى ؟

إن الواقع الأليم الذى تعيشه الدول الإسلامية يطرح علينا هذا السؤال وكثيراً من الأسئلة سواه ، وكلها تطمح إلى إجابة شافية ، تنهض بالمسلمين من كبوة العصور الماضية والتى تحول فيها المسلمون إلى تابعين ، ومملوكين ، بعد أن كانوا السادة والطليعة .

لن يفيد الأسى شيئاً ، ولكن الوقفة الحازمة العازمة هى التى تسير بهذا المجتمع العريق عبر بحر الظلمات إلى شواطئ الأمن والسلام والانطلاق .

لقد غامت الحقيقة الإسلامية فى أذهان كثير من المسلمين ، وتشوهت صورتها فى أفئدتهم بفعل الأعاصير العاتية من الغزو

الاستعمارى سياسيا واقتصاديا وفكريا . . بالإضافة إلى ما تقوم به الصهيونية العالمية من تصدير كثير من النظريات السياسية والاقتصادية والثقافية إلى العالم الإسلامى حيث تجد أرضا خصبة ، ومرتعا جيداً تمرح فيه دون مقاومة متكافئة وواعية وقد يظن البعض جهلا وقصورا - أن الغزو الخارجى يهدف إلى نزع الثروات الإسلامية والسيطرة سياسيا على المسلمين ، ولكن الواقع أن هذا الغزو يعتمد بالدرجة الأولى على نزع كل المقومات الإسلامية الإنسانية التى تربط الإنسان المسلم بقيم شريفة ومضيئة تمنحه السعادة والطمأنينة . . ثم يعمد الغزاة إلى تعمير الوجدانات المفرغة بقيم وثنية معتمة ، تحض على التصارع والفوضى والطغيان . . إنها عملية سحق للإنسان المتدين فى العالم الإسلامى بصورة بشعة ، تحقق للغزاة أهدافهم العدوانية ، خاصة بعد أن نجحوا فى تصفية الأديان من جوهرها الإنسانى فى أوربا وحولوا الأديان إلى طقوس وشعائر لا حس فيها ولا شعور . . لقد تخلى الأوربيون عن الأصول العليا للأديان وتحولوا إلى وثنيين عصريين . . ومن ثم يمكننا أن نفسر قيام هذه الحروب العالمية والمحلية الشرسة التى تهلك الزرع والنسل ، ولا تبقى ولا تذر !

إن الضحية دائماً هو الإنسان المسلم بالدرجة الأولى ، فهو يدفع ثمن الحروب ، ويكون ضمن وقودها الرهيب . فلا هو استطاع أن يحتفظ بذاته بعيداً عن الأطماع والجحيم ولا هو بقادر على مشاركة أرباب القوة والجبروت فى هذا العالم رغم ملكيته لمعظم الثروات وقدرته الهائلة على الاستهلاك .

والذى ينظر إلى واقع هذا الإنسان المسلم المعاصر ، يجد شبه إصرار على أن يظل تابعا وبطئ الخطى للغاية ، ومرتبكا بالأشجان والمحن ! !

ولا نستطيع أن نرى سببا رئيسيا لهذا الوضع المؤسف والحزين سوى أن الإنسان المسلم قد أفرغ من الإيمان الصحيح ، وانتابه كسل العصور المظلمة ، فاستسلم للهوان وللتبعية ، وترك الفرصة للطاغوت الخارجى والداخلى أن يكسر الأشياء البراقة والموهجة والمشعة فى وجدانه فانطفأت بذلك شعلة الكفاح والجهاد والسير قدما للأمام (ما ترك قوم الجهاد قط إلا ذلوا) . إن نظرة إلى السلف الصالح وما فعلوا ترينا إلى أى حد كان هؤلاء الأحباب طليعة نيرة ، قوية الاندفاع باليقين ، سخية العطاء بالبذل والتضحية والجهاد . . ما تركوا الجهاد قط . . الجهاد المتعدد الجوانب ، فى الإيمان والنفس والفكر والعمل والفتح والدفاع ؛ هذا البطل المقدام عقبة بن نافع يتحرك من القيروان حتى شاطئ المحيط الأطلسى فاتحا وداعيا باسم الله ولله ، ويقف على شاطئ المحيط مقرا فرسه فى المـــاء ، ويقول فى رهبة وجلال وتواضع لله : (يارب ، لولا هذا البحر المحيط لمضيت فى البلاد مدافعا عن دينك مقاتلا من كفر بك وعبد سواك) .

قال اليهود لنبى الله موسى عليه السلام : (**اذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون**) وكان الفارق عظيما بين الطليعة المسلمة والطليعة اليهودية الخائفة الوجلة المستخزية ! فهل أصبح العكس هو الصحيح فى عصرنا المشحون ! ؟

إن استعادة الحقائق لوضعها الطبيعي ، لا يتأتى بالقوة المادية فقط . وقد رأينا كثيراً من الوقائع التى أفرغت فيها القوة المادية من القوة الروحية ، ولعل أبرزها هزيمة الجيوش العربية فى عام ١٩٦٧ أمام قوة إسرائيل، إن ديننا الحنيف يحث على القوة المادية فى إطار الإيمان بالله عن يقين والدفاع عن دين الله فى يقين « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** » .

يردد الأستاذ وحيد الدين خان ـ المفكر الإسلامى المعروف ـ نموذجين معاصرين للنمو القومى حضاريا على أساس بناء الإنسان أولا وتنمية الإيمان داخله بعقيدة ما ، الأول ، اليابان ، والثانى اليهود . لقد تحركت اليابان نحو إقامة نهضتها الحديثة بعد وقت كبير من بدء النهضة فى مصر ، ولكن النهضة فى مصر تعثرت بينما كانت اليابان تتحرك بخطى واسعة وبعد أن دمرت الحرب اليابان فى الأربعينات وخلال الحرب العالمية الثانية واصلت رحلتها على أساس استدعاء روح الأصالة القديمة بكل ما تحمله من ولاء دينى ووطنى وقومى ، ثم أعطت للتربية أهمية مطلقة ، وأعطت للمدرس صلاحيات وكيل النيابة ، ومرتب الوزير . . وها هى اليابان تصعد نحو القمة العالمية بسرعة كبيرة تنافس العملاقين الكبيرين (روسيا وأمريكا) محتفظة بقيمها وطابعها وشخصيتها . . . وتتعامل مع جميع المعسكرات العالمية بمنطق الند والند المتفوق فى معظم الأحيان .

أما اليهود فقد اتجهوا بوحى التخطيط الصهيونى النظرى إلى التفوق فى مجالات العلوم والبحث والأدب ، وبرزوا فى مجال المعرفة على وجه العموم ، وبذا أتيحت لهم السيطرة على عصب الحياة فى الولايات الأمريكية المتحدة والبلدان الأوربية الغربية والشرقية على السواء . وها هم يؤثرون بشكل فعال ، وعلى نحو رهيب فى سياسة الدولتين العظميين وتحويلها إلى الاتجاه الذى يريدونه هم (مثلا : هجرة اليهود السوفيات – مشكلة فلسطين – القلاقل السياسية فى فرنسا فى عهد ديجول وبومبيدو) .

إن اليهود اليوم يسيطرون على الاقتصاد العالمى بدرجة متعاظمة ، وبالإضافة إلى وسائل الإعلام صحافة وإذاعة وندوات ومؤتمرات ، فضلا عن وجود الكثير من أساتذة اليهود ومفكريهم فى الجامعات والمؤسسات العلمية والتعليمية المتعددة .

إن اليابانى أو اليهودى ليس أكثر ذكاء أو أفضل عقلا من الإنسان المسلم ، ولكنه – أى اليابانى أو اليهودى – وجد من يخطط له ، ويوجهه ، ويزرع فى داخله قيما معينة ، وعقيدة بعينها . . ليحقق أهدافا مرسومة ، فى إطار من الإصرار والجدية . . أما الواقع الإسلامى فإن الفوضى الفكرية تسوده ، بالإضافة إلى اللامبالاه المتخلفة من الفراغ العقائدى والروحى ، وإن هتف الجميع بأن الشرق هو البقية الحافظة والمحافظة على الروح والحياة الروحية ! إن الحياة الروحية الأصيلة لا تترك من يحيون فيها على هامش الحياة والأحياء ، ولا تتركهم كما

مهملا لا قيمة له . . رغم العدد الهائل والإمكانات المدهشة . .
بل إن هذه الروحية العقائدية تكون باعثا على الحركة فى الاتجاه الصحيح
نحو التقدم ، والنمو المطرد تجاه التفوق والقوة .

لقد شهد العالم الإسلامى بعض التجارب التى كادت تنجح لولا
المعوقات المنافية للعقيدة والسلوك الإسلامى السليم ، فضلا عن مؤامرات
الغزو المستمر من الخارج فى صور متعددة .

كان قيام الدولة الباكستانية الجديدة بوحى من أفكار « محمد إقبال »
وكفاح من « محمد على جناح » بداية لتقديم نموذج عظيم للدولة الإسلامية
أو المجتمع الإسلامى حين يشق طريقه الصحيح وسط الصعاب بإيمان
ويقين وقد سارت الباكستان قدما فى هذا الطريق ، بيد أن سيادة
التسلط والديكتاتورية والأنانية ، واللامبالاة بالأهداف الإسلامية
العظيمة ، حطمت الروح الإسلامية الوثابة فى هذه الدولة الفتية ،
وجعلت من القيم الممتازة مجرد صورة بدون جوهر . . حينئذ أتيحت
الفرصة للغزو التخريبى من الداخل والخارج على حد سواء . . فتوقفت
الحركة المطردة فى الدولة الجديدة ، ثم سادها صراع سياسى مرير
لتنهى بتدخل دول أجنبية مزقتها إلى دولتين تعانيان مرارة الفشل وقسوة
المحنة وأحزان الفرقة . . إلى أن قيض الله تعالى لهذه الدولة الفتية من
يعيد لها وجهها الإسلامى المشرق فى شخص الرجل المؤمن الرئيس
الباكستانى الجنرال ضياء الحق الذى بر بوعده فأعلن تطبيق الشريعة
الإسلامية قولا وعملا لأول مرة منذ تأسيس باكستان واستقلالها عن الهند .

وقد أجمع كثير من الباحثين والمفكرين على ضرورة بناء الإنسان المسلم عقائديا وعلميا وسلوكيا . فبدون العقيدة المتغلغلة فى الأعماق ، والمعرفة النافعة ، والسلوك الرفيع لا يمكن أن يوجد الإنسان المسلم وبالتالى لا يمكن أن يقوم المجتمع المسلم المنشود .

وأعتقد أن صورة المجتمع الإسلامى الأول ، الذى نحب أن نطلق عليه « مدرسة النبوة الأولى » هى التى تقودنا إلى مجتمع متميز ومتفوق . . فإن مدرسة النبوة الأولى حفلت بالكثير من النماذج العظيمة والنادرة التى أقامت دولة عمادها التقوى والعدل ، وانطلاقا من اليقين الإسلامى الراسخ . . لا غرو أنها مدرسة المعلم الأول « محمد » صلى الله عليه وسلم . **« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »** الأحزاب ٢١ . وقد يسأل بعض الناس ؟
– هل من الممكن أن ننشئ أو نعيد مدرسة محمد الأولى . . ؟
الجواب : دون تردد : نعم إن الجدية والإيمان اليقينى من الطليعة المؤمنة كفيل مع الصبر والمثابرة أن يستعيد العظمة الإسلامية فى عصرنا الراهن داخل مجتمع نموذجى تسوده العدالة ويحركه اليقين ابتغاء وجه الله وواجب الطليعة الإسلامية يتضح فى ميدان الدعوة الإسلامية وهو ميدان فسيح ومتشعب ، ويحتاج إلى جهد دائم ومتواصل مدعوم بالخبرة والمعرفة والقدوة الحسنة ، ومن المؤسف أن هذا الميدان مازال يمتلئ بالكثيرين ممن لا خبرة لديهم ولا معرفة صحيحة عندهم ، وليسوا قدوة حسنة يمكن اقتداء الناس بها !

ولعل هذا يرجع بالدرجة إلى الإهمال الذى يبدو من نظرة الحكومات المختلفة فى العالم الإسلامى إلى هذا المجال ، وترحيله إلى ذيل قائمة الاهتمامات والمسئوليات فى حين يحظى التبشير المسيحى مثلا باهتمام عظيم من جميع الدول الأوربية ، فضلا عن إقامة دولة كاملة لهذا الغرض – أعنى الفاتيكان .

وإذا كنا نعتقد أن مجال الدعوة الإسلامية بالدرجة الأولى إنما يتحقق بالدعوة داخل العالم الإسلامى ذاته وبين المسلمين أنفسهم ، فإن هذا يتطلب اهتماما ينقل بالدعوة إلى استراتيجية حضارية يعتمدها المجتمع الإسلامى لازدهاره ونموه المطرد .

إن الدعوة فى الداخل (ضرورة قصوى) تفرض نفسها لمواجهة سموم الغزو الفكرى التى ينقلها مسلمون و عرب إلى قلب المجتمع الإسلامى مغلفة بأغلفة الحضارة الغربية والعصرية وهذه السموم تركز بالدرجة الأولى على نظام الأسرة لتقويضه ، وهدم أهم الأركان فى البناء الإسلامى لتسهيل استباحته بعدئذ استباحة تامة . . وإذا كان بعض هؤلاء النقلة يعمل بوحى من ضميره أو بدافع مخطط غريب فإن لنا أن نتصدى لكل فكرة طارئة ونناقشها ونمحصها حتى يبقى الجوهر الإسلامى نقيا ، وصافيا من كل الشوائب القديمة والحديثة على حد سواء .

وللدعوة مجالها الهام داخل العالم الإسلامى حين تقلل من الخلافات بين بعض المذاهب والفرق الإسلامية – التى تصل فى بعض الأحيان

إلى جعل أصحاب الفرقة أصحاب دين آخر – إن توحيد هذه المذاهب والتقريب فيها يسهل عملية صياغة المدرسة الإسلامية الجديدة على مناهج القرآن والسنة المطهرة والأخوة الإسلامية الجامعة .

وبالطبع فإن منهج الدعوة الإسلامية لن يتصالح مع الحركات الهدامة التى تسللت إلى الإسلام تحت ستار البهائية أو القاديانية أو غيرهما . . فهذه الحركات نتاج للفكر الصهيونى الماسونى . . الذى يبغى السيطرة على العالم كله ونهبه والتحكم فيه .

إننا نأمل أن نجد آذانا صاغية ، تعى القول الإلهى العظيم : **« وجاهدوا فى الله حق جهاده ، هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير »** (الحج ٧٨) .

فالجهاد كما نرى هو الأمر المستديم الذى يحقق الشهادة لنا وعلينا . ولا حدود لهذا الجهاد الذى يهفو إلى أمن الإنسان وسعادته وتقدمه . . فلنعتصم بالله وهديه فى عقيدتنا ويقيننا وسلوكنا إنه نعم المولى ونعم النصير . . ولندع إلى الله وشريعته على بصيرة ، بالحكمة والموعظة الحسنة والله الهادى إلى سواء السبيل .

اليقـــين الإســــلامى

- ١ -

يعترف المنصفون من كتاب الغرب ومستشرقيه بأن الدين الإسلامى يتفق تماما والفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها كما يتواءم مع هذه الفطرة فى احتياجاتها البيولوجية والسيكلوجية ، وتطلعاتها الطامحة للمعرفة وسبر أغوار هذا الكون الهائل العجيب.

بيد أننا حين نرجع البصر فيما حولنا نجد أن هذه الفطرة الإنسانية قد تأثرت تأثرا بينا بما أحدثه التقدم التكنولوجى المعاصر فى وسائل الحياة . . وطرق المعيشة وطبيعة العلاقات البشرية ابتداء من الجماعات الصغيرة – وأقرب نموذج لها هو الأسرة – حتى الدول الكبرى وقد أخذ هذا التأثر يحدد نفسه الآن فى أن كل سلوك إنسانى يبدو منتسبا بطريقة أو بأخرى إلى طبيعة العصر – وهذا بديهى – بيد أن الغريب هنا أن الطبيعة الإنسانية أو الفطرة البشرية تبدو وقد مسخت مسخاً نقلها من حالة إلى أخرى لا يمكن معها أن نقول بأن هذه الطبيعة أو تلك الفطرة يمكن أن تتقبل نظاما فطريا . . كالإسلام بالسهولة التى كان يمكن أن تتقبله بها فى أول عهد الدعوة الإسلامية ، أو فى القرون الوسطى مثلا . إذ أن الإنسان فى هذا الزمان قد أصبح محاصرا بشتى الأفكار والعقائد والرؤى والنظريات التى تسرى عبر الأثير

وتساعد الأقمار الصناعية فى حملها من أقصى الأماكن مصورة على وجوه أصحابها ومعتنقيها .

وفى اعتقادى أن الدعوة الإسلامية انطلاقا من هذا الواقع الراهن تحتاج إلى ذهنية جديدة تدرك طبيعة هذا العصر ومقتضياته ، وتفهم الطريقة الممكنة — كحد أدنى وليس الطريقة المثلى التى يرجوها الجميع ولا يحققون هذه ولا تلك ومن ثم فإن الطريق إلى عقول المدعوين إلى الإسلام يجب أن يأخذ فى اعتباره حقيقة الواقع المعاصر . وغزو العقل البشرى الطامح للاستقرار الروحى والنفسى على هدى ما يعيش داخل هذا العقل ويؤرقه ويجمح بالكثيرين إلى طريق اللاعودة .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة الحجر « **ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون . فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** » وفى هذا الخطاب الإلهى معنى ضرورة المعاناة فى سبيل الدعوة وضرورة التوجه خالصا لله ، والقدوة المثلى حتى يأتى اليقين أبيض أبلج كنور الصبح فاليقين الإسلامى عناء وشوق وممارسة وحب ، أصحابه هم الذين أحسنوا الحسنى وزيادة . رضى الله عنهم ورضوا عنه .

— ٢ —

. . لما كان اليقين الإسلامى معاناة وشوقاً ، وممارسة وحباً ، فقد أشرقت روح الإسلام بالمسلمين الذين يحملون هذا اليقين فى أعماقهم ، ويسيرون على هديه ، وتقودهم خطاهم إلى حيث الحب

الخالص للدعوة ورسولها الكريم صلى الله عليه وسلم . . ومادامو ا قد وصلوا إلى هذه المرحلة – الحب الخالص – فإنهم يبذلون كل البذل ، ويعطون كل العطاء فى رضا تام وسرور بالغ . .

وقد كان رسول الدعوة صلى الله عليه وسلم خير قدوة فى استلهام هذا اليقين وهو يخطو على الدرب الإسلامى حثيثا نحو تخايص الواقع المعاصر فى زمنه من شوائب الجاهلية ، وأدران الجهل ، وقرون الاستبداد الأعمى .

« قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين »،« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ».

ومع أن الرسول العظيم (ص) قد لقى من عنت الكفر الأعمى والجهل الغبى ، مالقى ، فإنه كان يخرج من هذه المعاناة ، ويقينه الإسلامى أكثر انصهارا وبلورة **« كذلك لنثبت به فؤادك »** . ولعل المرحلة الأولى فى بدء الدعوة الإسلامية كانت اختبارا ناصعا لهذا اليقين ووصلت به صلى الله عليه وسلم أن يقول لعمه أبى طالب ذات يوم ، وقريش تساوم وتغرى وتستثير الشهوة الإنسانية للتملك والسيطرة « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ما تركته » ! ! .

إن اليقين الإسلامى الذى ارتسم على جبين « محمد » صلى الله عليه وسلم أبيض ناصعاً ، لهو قمة الإيمان التى ميزته عن غيره من الرسل والأنبياء ،

إن من تحثهم خطاهم نحو الشوق الأخضر واستشراق المجتمع الإنسانى الخالص لابد أن يخرجوا عن نطاق أى يقين وضعى لأنهم سوف يجدون – بالضرورة – أنواعاً شتى من القصور والعجز فى إشباع الروح الإنسانية بتطلعاتها وإلهاماتها ، كما أن اليقين الوضعى يضفى على المرء نوعا من الانغلاق والتحجر والتقوقع داخل رؤى محدودة ، تكتم أنفاس الروح ، وتئد إشعاعات العقل ، وتميت إشراقات القلب . **« قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى »** .

– ٣ –

وتعطى مدرسة النبوة الأولى أمثلة حية وقوية على مدى ما يفعله اليقين الإسلامى بأهله وذويه ، ومدى ما يصلون إليه بالمعاناة والشوق ، والممارسة والحب .

وقد كانت مدرسة النبوة الأولى تواجه موقفاً جديدا للغاية ، وفريدا فى نوعه أيضاً فقد كانت تحتكم إلى إيحاء الفطرة ، وإملاء السليقة ، وهدى البصيرة ، ومن ثم كانت أعماقهم تحمل اليقين وتسافر به إلى حيث يطلب منها تأكيدا وإثباتا ماديا . فلم تقف هذه المدرسة بيقينها عند حدود التصديق اللفظى ، والإيمان القولى والشعارات الدالة عليه من صلوات وأدعية وهتافات أحيانا . . بل كانت ترتدى لباس النخوة فتريق دمها دفاعا عن الإسلام ، وحرصا على السلام ، وتعبيرا عن اليقين الكامل .

ونعتقد – كما يعتقد سوانا – أن هذه المدرسة الأولى لم تكن تملك المال لتستميل به قلوب المدعوين ، ولم تكن تملك وسائل الدعوة والمغريات لاعتناق الإسلام نظير جزاء مادى أو معنوى . ولم تكن – كذلك – تفرض ذاتها بقوة السيف والإرهاب ، فقد كانت آنئذ وليدا تحبو فى الظلمات على ضوء الإسلام الآتى بعد الهزيع الأخير من ليل الجهل والضلال ، وكانت بلا قوة مادية أو حربية تذكر بالقياس إلى ما يملكه أعدؤها وشانئوها . وإنما كانت دعوتها تقوم على إيمان ذاتى ، لا يعرف قوة يخشاها ولا يتمنى غنيمة يغنمها ، أو ثوبا يحصل عليه . وإنما الدافع الأول والمحرك الأول هو الإيمان النابع عن اليقين الكامل « **قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . .** » الآيات لا شك أن صورة المجتمع المؤمن الذى ترسمه الآيات تراود خيال كل تلميذ فى مدرسة النبوة الأولى دون إرهاب أو قهر أو إغراء . . بل هى الحياة الإنسانية والأخوة البشرية والعطاء المشترك لخير الجميع . .

وقد رسم لهم المولى سبحانه الطريق لحماية هذا المجتمع وتدعيمه فى مواجهة القهر الرابض ، والضلال الناشز ، والعمى القائم ، والجهل المقيم « **وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس** » .

ولم تكن مدرسة النبوة الأولى غائبة عن الوعى حين أعطت نفسها وتاريخها للإسلام بيقينها المتوهج والثائر والرافض لكل أنواع الظلامات . « **إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون** » .

— ٤ —

. . وكان توهج اليقين الإسلامى على جبين مدرسة النبوة الأولى ، إنعكاسا لقوة الإسلام وتعبيرا عن جوهره الصافى نحو الإخاء البشرى والعدالة المطلقة والمجتمع الإنسانى المتكامل .

فالإسلام منذ بدء مرحلته الأولى على يد سيدنا آدم عليه السلام ، وحتى ختم على يد محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، لم يكن دين طبقة أو استبداد أو فوارق من أى نوع ولم يكن مميزا لبعض المؤمنين دون البعض الآخر ، إلا بمقدار البذل وقوة اليقين فى الله والدين . وها نحن نرى أرق صورة للمجتمع المتضامن والمتكافل والمتسامح « **محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ ، فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما** » .

إنها السماحة الإسلامية فى أروع صورها وأبهاها ، حين يخاف المسلم على المسلم فلا يحقره ولا يخذله ، ويكون به رحيما ، وله معينا ،

وعليه مشفقا وحانيا ، لا ضرر ولا ضرار . . بنيان مشدود وعطاء سخى لا ينقطع بفوات الأيام ومرور الزمان . . والملاحظ أن الإسلام منذ بدء الخليقة وهو نقى الجوهر ، صافى المخبر ، ولم يتغير أبداً إلا على أيدى أولئك الذين تخلوا عن اليقين ، وسخروه لمصالحهم الخاصة من المستبدين ورجال الكهنوت والأكليروس ودهاقنة يهود ، حتى أصبح صوت الحقيقة على أيديهم جثة ميتة فى كتاب التاريخ ، ترقد بجوار كثير من ضحاياهم والمظلومين والأشقياء . .

بيد أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مدرسته الأولى ، قد استطاعوا أن يضربوا المثل طاهرا نقيا على أن الحلم بالمجتمع الأفضل ممكن ، وأن إقامة العدل ليست مستحيلة وأن السلام شىء يمكن تحقيقه لو تخلى الأغبياء والحمقى عن غبائهم وحمقهم وقهرهم لغيرهم من الناس والمخلوقات .

ولعل أقرب مثل يحفظه التاريخ للإسلام ، ممثلا فى مدرسة النبوة الأولى ، هو إقامة البنيان الاجتماعى المتسامح ، الذى يحتفظ لكل الناس بحق العقيدة والفكر والسلوك **« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى »** — وأعلنت صيحة « **« لكم دينكم ولى دين »** . ألا ما أروع التسامح الإسلامى النابع عن يقين قوى يؤمن أن الأرض لله . وأن البشر خلق الله ، فله الحول والطول **« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »** .

فأين هذا البنيان المتسامح من بنيان الصلف والغباء والغطرسة والحماقة الذى يقوم عليه أعداء الله والإنسان ؟

— ٥ —

يقول الشاعر الكبير ، وفيلسوف الإسلام فى القرن العشرين « محمد إقبال » :

الحر يحلو عيشه كالصقر فى قمم الجبال
ويرى الوكور مذلة ضاقت بها همم الرجال

ولم يقل إقبال هذا الكلام بدافع الوطنية ، أو مقاومة الاستعمار ، أو ترنيمة فى حب الحرية فحسب ، وإنما قاله بعد جهد طويل ، وصبر عميق مع الذات فى سعيها الحثيث والدائب نحو المعرفة واستلهام الطريق . . وقد وصل به الحال إلى اليقين الإسلامى فى أنضر صوره المعاصرة وأنقاها .

ودعوة الحرية أساسية وجوهرية فى الإسلام واليقين الإسلامى عمادها ، وقد جاء الإسلام داعيا إلى التحرر من سيطرة الآلهة التى التى لا تضر ولا تنفع ، وداعيا إلى نبذ الظلم والجهل والخنوع لأن هذه الأمور مقيدة لحركة الإنسان وقاهرة له ، وهاضمة لحقه فى الحياة الإنسانية الكريمة **« انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »** .

إنها دعوة إلى الحركة وليس السكون والهرب والخوف ، ومن ثم فقد نعى القرآن الكريم على الذين يولون الأدبار ويخافون من اقتحام الموت دفاعا عن الحياة والشرف والكرامة « **لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** » . وهذه الصورة من أقسى الصور على النفس الكريمة والذات الإنسانية الشريفة التي تبحث لكيانها عن هوية وملامح . ولكن الصورة المؤمنة والمتحركة على نهج اليقين لا تتقبل موقف الهاربين والمنهزمين والخائفين والمنافقين ، لأنها تعلم أن صاحب الخلق أولى بخلقه ، وأن الكل صائر إليه لا محالة فلتكن هذه الصيرورة في موكب الشرف والعزة ، وليس في موكب الذلة والمهانة والاستهزاء « **فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما** » أما الذين يهربون ويخافون وينهزمون من الخوف حرصا على أنفسهم وضنا بما لهم ، وفراغا من اليقين . . فهاكم أخبارهم : « **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ؟ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك . قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا** » .

إن اليقين الإسلامى حرص على الدين وجوهره ، وحرص على الحياة الكريمة الفاضلة ولم يكن أبداً حرصا على حياة مزيفة وميتة . . أى نعم ميتة موتا كاملا فأى حياة لإنسان لا يملك الحرية ؟ وأى حياة لإنسان يعيش أسير المذلة والهوان والخوف والطاغوت؟ يقول إقبال :

مادام جسمك جاهلا بالروح والسر المكين

فى موكب الموتى تعيش وفى عداد الهالكين

دعواتك الخرساء لن ترقى لرب العالمين

إن الإله الحى ، قد كره ابتهال الميتين

— ٦ —

كان التصديق المطلق للدعوة الإسلامية هو أساس اليقين لدى مدرسة النبوة الأولى فقد آمنت أن كل ما يأتى به الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم هو الصدق الذى لا تشوبه شائبة ولا يعتوره أى ريب . . ومن ثم كان التبكيت الآلهى لمعارضى الدعوة ومناوئيها قاسيا ومستنكرا لسلوكهم المعيب « **أفتمارونة على ما يرى ؟** » .

ولا شك أن مدرسة النبوة الأولى قد صدقت الرسول الكريم تصديقا قائماً على إيمانها الأول بمنهج الدعوة وجوهرها المتضمن نقل الإنسان من عالم الظلم والظلام إلى عالم النور والضياء . وهو العالم الذى تتوهج فيه الحكمة والمعرفة ، وموازنة الحقوق والواجبات وسيادة

الأخوة البشرية . . بل تحقيق الحلم الإنسانى الذى انتظره الناس منذ زمن طويل وهو إرساء قواعد المجتمع الأفضل .

وفى مقابل هذه المدرسة التى اعتنقت الإسلام عن يقين متوهج ، نجد عصابة الشرك المناوئة تقوم مدرستها على أساس الظن والتخمين والشك ، وها هو التبكيت الإلهى القرآنى يوجه الخطاب إليهم فى مناقشة علمية وموضوعية لا ترقى إليها أى مناقشة موضوعية معاصرة **« أفرأيتم اللات والعزى ؟ ومناة الثالثة الأخرى ؟ ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذاً قسمة ضيزى . . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان »** .

وتصل المناقشة الموضوعية القرآنية إلى الذروة بتشخيص الأساس الفكرى الهش الذى يقوم عليه بنيان المدرسة الكافرة : **« إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »** ومن غير شك فإن الظن والهوى لا يصلحان أساسا للإيمان والوصول إلى اليقين . ولقد نعى القرآن على المشركين فى أكثر من موضوع اعتمادهم للظن فى محاجتهم وحججهم : **« إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغنى من الحق شيئاً »** ، **« إن هم إلا يظنون »** ، **« إن بعض الظن إثم »** وغير ذلك من الآيات التى حذرت من الظن كأساس للرفض والإنكار ، وبالضرورة فإنهم – أى المشركين لم يتخذوا الظن طريقاً للإيمان أو احتمال التصديق بالدعوة الإسلامية ومنهجها ، وإنما اتخذوه وسيلة للكفر والإنكار .

إن مدرسة النبوة الأولى فى تصديقها برسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن شاذة فى تصديقها ولا فى إيمانها بل كانت فى الأساس صادقة مع نفسها ومع نظرتها . . ومن ثم فقد وصلت إلى ربها صادقة معه ، وراضية مرضية وأضحت للتاريخ عنوانا للأصالة حين تعبر عن نفسها فى أمر يعد من أخطر الأمور وأهمها . . وهو الانتقال من الشرك إلى الإيمان ومن الشرك إلى اليقين .

— ٧ —

لتميز مدرسة النبوة الأولى بعدة مميزات :

١ ـ أنها حملت اليقين الإسلامى على أساس من الفطرة الصادقة . والصدق مع النفس .

٢ ـ أنها رأت فى ذلك اليقين خلاصها من الواقع المهين الذى تحياه والذى وصل إلى ذروة اللاإنسانية ، وأقوى الظلمات كثافة « وإذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت » ؟ ،

٣ ـ ومن هذا المنطلق فإنها تحملت تبعات اليقين ولم تتوقف عند حد التأييد القلبي والسلبي بل تجاوزت هذا إلى التأييد المادى والإيجابى .

ويعنينا هنا أن نتوقف لحظة قصيرة مع هذا التأييد المادى والإيجابى . لقد تمثل على يد التلاميذ النجباء فى مدرسة النبوة الأولى . . سواء

الأحرار منهم والذين يملكون من وسائل القوة ، وشرف الانتماء ، والنسب العريق ، أو الذين كانوا عبيدا ومستضعفين فى الأرض يتخطفهم الناس . . وكان ائتلاف هذه المدرسة من أروع ما شهدته المدارس على مر التاريخ ، وأكرم بها مدرسة تضم : « الصديق والفاروق وذا النورين وعليا وبلالا وسلمان وعمارا وسعدا وصهيبا والزبير وغيرهم »

إنها مدرسة اليقين فى توهجه ونضارته واخضراره ، وهى مدرسة القدوة الحسنة والاقتداء الطيب ، ولا غرو أن تتحمل هذه المدرسة على أكتافها أعباء البناء والنشر والتدعيم .

لقد حملت هذه المدرسة إلتزاما بدينها الحنيف ، وإنطلاقا من يقينها القوى تبعة الدفاع عن الإسلام ، ثم مسئولية الفتح فيما بعد على يد من انتسب إليها من الجيل التالى .

بيد أن الذى يهمنا هنا هو مدى ما قدمته هذه المدرسة تعبيرا عن يقينها المتوهج والنضر من بذل وفداء . .

والثابت تاريخيا أنها أعطت للزمان نفحة عطر ما زال أريجها يتردد بين جنبات التاريخ وسوف يتوهج على جبين المستقبل أيضا — إن شاء الله — ويمكن للمرء أن يدرك كيف قدم رجل مثل أبى بكر ماله وروحه فداء للعقيدة ، وكيف تقلب بلال على الرمضاء وهو يهتف أحد أحد ، وكيف تعرض الفاروق بذاته للمناوئين ، وكيف غامر

على بالنوم مكان الرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة ، وكيف ترك التلاميذ مكة إلى الحبشة مرتين ، ثم إلى يثرب ، وكيف خاضوا قتالا ضاريا وشرسا ضد قوى القهر والإرادة . لقد تحركوا فى كل ذلك عن يقين . . .

— ٨ —

لا يستطيع المرء أن يرصد كل وسائل التعبير عن اليقين الإسلامى لدى مدرسة النبوة الأولى . . . لمـــاذا ؟ لأن هذه المدرسة قامت بعمل جليل ، يجل عن الإحاطة ويرتفع عن المتابعة الشاملة والكاملة . ولـكن المرء سوف يستطيع أن يرصد من بعيد تلك الملامح البارزة والمؤثرة والممكنة .

إن قمـة هذا اليقين تتمثل فى مواقف فردية لرجال أخلصوا دينهم لله ورسوله وامتثلوا لدعوته ومنهجها القويم ، كما تتمثل فى مواقف جماعية تتكامل فى جوهرها وتأثيرها مع المواقف الفردية لرجال المدرسة الأولى . .

بيد أننا نرى — بداءة — أن الهجرة من مكة إلى الحبشة ثم إلى يثرب كانت من أقوى المواقف الإسلامية تعبيرا عن اليقين الإسلامى فى مهده الأول . . فأى مبرر يسوغ للمرء أن يترك أهله وذويه ووطنه ليهاجر إلى بلاد أخرى ، ويلتقى بأقوام آخرين لا يعرفهم ولا يعرفونه والمعرفة هنا تعنى الألفة وممارسة الحياة فى تلقائية ويسر .

إننا لن نجد مبررا لذلك إلا إذا كان المرء يوجد لديه سبب قوى ومصيرى يدفعه إلى الهجرة ويحثه عليها وهذا السبب فى أساسه ونهايته سبب داخلى يختص بالذات وحدها ولا تفرضه قوة خارجية أيا كانت إذا كان المهاجر يملك من العقائد والأفكار ما يحتم على هذه القوة الخارجية مكافحته ومقاومته وترحيله إلى مكان آخر بعيداً عن وطنه .

ولقد هاجر المسلمون الأوائل بدافع اليقين الإسلامى وتحت ضغط القوة الخارجية التى تمثلت فى الملاحقة والمحاصرة الكافرة والتى كان يفرضها مشركو مكة وكفارها . ولكن الدافع اليقينى كان أقواها جميعاً . . إذ أنه كان من الممكن أن يكتم الرجل إيمانه حتى يصبح فى مأمن من الملاحقة والكيد والأذى بيد أن من تغلغل اليقين فى نفسه وصار اليقين دمه وعظمه ، لا يمكن أن يقبل الصمت المقهور أو الإيمان المكتوم . ولعل فى تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سائر من مكة إلى يثرب ما يفسر لنا قيمة الهجرة كأقوى تعبير عن اليقين الإسلامى — لقد قال صلوات الله عليه مخاطبا مكة بما معناه والله إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى ، ولولا أن قومك أخرجونى ما خرجت .

إن مغادرة الوطن من أجل العقيدة لهى أصعب الأشياء على النفس الإنسانية حقاً ولكنه اليقين الصادق يدفع أهله وذويه إلى تجاوز كل الصعاب فى سبيله ، والسير بقدرهم نحو النهاية الإنسانية والمنطقية لهذا اليقين . . **« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيما »** .

يقف المسلم متأملا إزاء الهجرة الكبرى كوقف يقيني راسخ ، فيجد فيها لوحة التكامل الإنسانى الرائع بين اليقين الإسلامى فى صورته الفردية وصورته الجماعية . . سوف نجد رجلا مثل عمر رضى الله عنه يمتشق سيفه ويقف على مشارف مكة ثم يعلن هجرته الصريحة والقاطعة والعازمة أيضا . . ويطلب من كفار مكة وسفهائها النزال لكل من يحدث نفسه بالتعرض والمنع ولكن أحدا لا يتعرض لعمر خوفا منه واعترافا بقوة بأسه ووثوقا فى عقلية عمر التى لا تقبل بالسطحية ولا بالتفاهة . . لقد اعترفت قريش بعمر كأمر واقع لم ينشأ هذا الواقع مصادفة لدى عمر وإنما نشأ بعد معرفة دقيقة وعميقة لجوانبه العمرية ونفسيته وتاريخه فهو ليس بالرجل الساذج ولا هو بضعيف الفؤاد وليس فى تاريخه ما يشين أو يوجب الحكم عليه بالتردد أو التراجع والجبن أمام الأحداث بل إن أباه يشهد باحترامه لنفسه وعقيدته ولما يؤمن به وعدوله عن الباطل إلى الحق حين يرى الصواب دون خجل أو مواربة ونحن لا ننسى ما فعله عندما استبد به الجوع فأكل صنمه ، وكان قد صنعه من الحلوى . . لقد رأى عمر بسليقته وفطرته أن هذا الموقف الحاسم يهدم العقيدة الوثنية ويهدم أساس الفكر الجاهلى جميعا ، إنه بذلك يملك ذاتا تحمل فى عقلها بذور اليقين الذى يعتمد على الحق فى كل الأحوال ومن ثم فإن عمر الذى آمن بالله بعد اقتناع وفهم يعبران عن يقين إسلامى ثابت ، ولا يعترف بالضغط

أو الإكراه ولا يخضع للمغريات أو المغامرات وإنما هو الإيمان الراسخ العميق دفعه لا متشاق حسامه وإعلان نيته فى الهجرة ثم استعداده لملاقاة التحدى عن رضا كامل فكان بذلك مثلا لمـــا يفعله اليقين الصادق بالنماذج المشرفة والرائعة من تلاميذ المدرسة الأولى للنبوة وما يمكن أن يفعله بالأحفاد والأسباط من جيلنا الذى يحتاج إلى مطالعة هذا النموذج الفذ لليقين الإسلامى والتأسى بخطاه ومتابعة المسيرة من بعده إنه بعض العطر النبوى فى المدرسة الأولى . وسوف نجد رجلا مثل أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – وهو من عرفنا : الرجل الحصيف الحازم، والموثوق به فى قومه ، والذى يحمل الديات ، ويجبر المستضعفين ويحرر الرقيق ، ويملك من الجاه فى مكة ما لا يمكن لأحد أن ينكره أو ينازعه فيه . . . إنه رجل ذو مكانة وكفى ؟ . .

يتحرك هذا الدافع لدى أبى بكر وينتقل معه من الجاهلية وظلماتها إلى الإنسانية المستنيرة والمعرفة المتكاملة ، وبعد أن يؤيد محمدا قبل الناس جميعاً ويؤازره قبل الناس جميعاً ، يأبى أن يتركه يسافر وحده مهاجرا عبر التيه ويصر على مناصرته فى الرحلة التاريخية ويعضده بماله وممتلكاته ويترك بيته وأهله جميعاً مع جاهه ومكانته فى قومة ليس أبو بكر إذاً من الذين تحركوا وفق أهواء ذاتيه أو مطالب خاصة فهو يعرف أن محمدا وحيد بعد أن تخلى عنه قومه ، وهو يعلم أن محمدا لا يملك من العدة والعتاد ما يظن أنه سيعود بعده عزيزا قوياً فاتحا ملكه وسيدا عليها . . أبوبكر يعلم أن محمدا لا يملك سوى شىء واحد : ألا وهى العقيدة الإسلامية وقد آمن بها أبو بكر عن ثقة واقتناع ،

وكان اقتناعه بهذه العقيدة اقتناعا لا شائبه فيه ، إذ رأى فيها بعقله وقلبه كل آماله فى الحياة السخية والعطاء الثر ، ومن هنا فقد رصد لها كل عقله وقلبه ، وأوقف عليها كل ماله وحياته . .

لا يسع المرء عندئذ إلا أن يدهش بل يهتز عندما يرى أبا بكر قبل الهجرة يدعم الدعوة ورجالها ويحرر أرقاءها ، ثم يأتى القوم فى مكة وهم يستمعون إلى المبعوث الأمين صلوات الله عليه وسلامه يحكى لهم قصة الإسراء والمعراج ، فيقول لهم أبو بكر : « . . . وإنى لأصدقه فى خبر السماء » . وكان تصديقه اليقينى وساما يحمله أبو بكر حتى ذهب مع النبي صلوات الله عليه وسلامه إلى الغار ويحزن من أجله بباعث من يقينه — لملاحقة الكفار وحصارهم فتنزل الآيات من السماء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه الصديق بالطمأنينة والوعد بالنصر :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليـــا والله عزيز حكيم » (التوبة : ٤٠) .

كان يخاف على صاحبه ، وكان يحزن من أجله ، وكان قلقا على الدعوة والمؤمنين بها رحمك الله يا أبا بكر . . عندما حملت كل هذه المشاعر الفياضة ، وأعطاك يقينك الإسلامى دفق الحياة فلم تتوقف . . بل انهمرت تجرى كالسيل ، وكان إسلامك عطاء

بكرا للدعوة البيضاء . . دعوة الحب والأمن والسلام والإخاء . . .

– ١٠ –

لن نعدم رؤية الصورة الفردية ، وهى تبرق متوهجة بفرسان اليقين الإسلامى إبان الهجرة الكبرى ، من داخل الظلام إلى مهبط النور ، ولن نعدم رؤية الأحباب وهم يتحركون وفق يقينهم فى صلابة الفولاذ وحدة السيف . .

وسوف نقف قليلا عند النموذج الشهير الذى كان أول من نطق بالشهادتين ، وأحب من تربى فى دار النبوة ومدرستها الأولى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكبر من ضحى بنفسه وذريته فى سبيل الحق وحده . . إنه على بن أبى طالب ، الخليفة الرابع والإمام العادل ولو عددنا صفاته ما انتهينا .

كان على بن أبى طالب – رضى الله عنه – من أحب الناس للنبى صلى الله عليه وسلم عندما قست الحياة على والده (أبى طالب) ففرق أولاده لدى العائلة الكبيرة ، فاختار الفتى محمدا ، واختار محمد الفتى . . فكان وفاء وكانت رعاية وكانت تربية فى ظلال محمد صلى الله عليه وسلم .

ماذا يتعلم التلميذ إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم معلمه ؟ وماذا سيكون مصيره فى مدرسة النبوة ؟ أكرام به من معلم ، وأحسن بها من مدرسة .. لقد كان محمد حسن الخلق والخلق يكفينا هنا أن ندرك أن عليا وكل تلاميذ المدرسة الأولى سوف يتلقون مكارم الأخلاق ونعنى

بها القدرة على التصرف السليم والقدرة على معرفة الخطأ والصواب ، والقدرة على تجنب الأول وممارسة الثانى ، ومكارم الأخلاق هنا صورة من الصدق مع النفس ومع الغير ، وأنعم بها من صورة .

تخرج على نابها حسن السيرة ، طيب السلوك ، متفوقا فى خلقه، كان من أشهر الفرسان على حصـــانه وطرف لسانه . . من السيف إلى البلاغة .. ولا يملـكهما إلا الشجاع .. فيه شجاعة الجندى الباسل وعظمة البليغ الفصيح . . ومن ثم كان إسلام على وإسهامه الفردى ليلة الهجرة الكبرى ، فنام مكان محمد والكفر يترصد محمدا على باب الدار . . نسمع هذا الزمان عن الفرق الانتحارية ، والتى تشكل من مجموعات بهدف الدفاع عن فكرة معينة أو عقيدة ما ، ولكنها فى معظمها تتحرك بالليل ، لكى تحقق ضربتها دون أن يشعر بها أحد فى لحظة المغامرة ولـكن الحال هنا يختلف . . فها هى الدار التى يقف عليها على بابها عشرات الرجال الأشداء وبأيديهم سيوف قاطعة ، ينتظرون الرجل الخارج من قلب الدار ليجهزوا عليه مرة واحدة فى ضربة واحدة منهم جميعاً ، ولـكن الفتى يصر بشجاعة نادرة على النوم — جهراً — فى سرير محمد، ويسحب الغطاء عليه حتى يخرج محمد فى رعاية الله دون أن تراه العيون المحدقة — لقد أطفأها الله — ويسلم محمد من السيوف العمياء، ويبقى التاريخ يذكر الفتى الشجاع ويحفظ له يقينه الذى دفعه إلى شجاعة فى سبيل الحق استمرت طيلة حياته : فتى ورجلا شابا وكهلا وقورا بل كانت دافعاً لأولاده

وذريته من بعده إلى مكافحة القهر مهما كان رهيبا وعاتيا وقاسيا ..

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » (يونس : ٦٤) .

— ١١ —

فى الصورة الجماعية التى صنعتها مدرسة النبوة الأولى إبان الهجرة الكبرى ، لا تنفصل الجزئيات عن الإطار العام للصورة . . إنها تتسق وتتلاحم لتقدم أروع الصور لما يفعله اليقين الإسلامى بالجماعة الإسلامية عندما تدرك دورها وقدرها ومصيرها المحتوم ، وتفهم واجبها الذى يحتم عليها الحركة الخلاقة والمبدعة فى سبيل الأمن والبناء ، إنها جماعة الحق التى التقت عليه ومن أجله ، لذا كان خروجها الصامت تحت جنح الظلام لتستبين الرشد من الغى أمر له دلالته وله مغزاه حين نقارنه بخروج بنى إسرائيل مع نبى الله ورسوله موسى عليه السلام . .

لقد خرج المسلمون أملا فى واقع أفضل تلتئم فيه جراحهم ويشتد ساعدهم ويقوى بنيانهم ويمارسون الدعوة لدينهم ونشر عقيدتهم . . لكن بنى إسرائيل بعدما عبروا البحر ، بدءوا يمارسون لعبة المساومة والمتاجرة والابتزاز .

« ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات — فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا

فيه يختلفون » (يونس : ٩٣) . لقد اتخذوا العجل إلهاً وكفروا بنعمة الله بعد إنعامه عليهم بالمن والسلوى والطيبات ولم يطيعوا الأوامر الإلهية وبدلوا قولا غير الذى قيل لهم ونسوا ماذكروا به : « **وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين . فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون** » الأعراف ١٦١ – ١٦٢ .

والأدهى من ذلك أنهم عندما أمروا بالتعبير الإيجابى عن إيمانهم ويقينهم برسالة موسى عليه السلام ، لم يمتثلوا لهذا الأمر ، وقالوا لموسى : « **إنا لن ندخلها أبداً ماداموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنا هاهنا قاعدون** » (المائدة : ٢٤) . . عندئذ لم يجد موسى بدا من تسليم أمره لله وعرض إمكانياته أمامه « **قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين** » (المائدة : ٢٥) ... وكان الجواب الإلهى رادعا : « **قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين** » (المائدة : ٢٦) .

على الجانب الإسلامى نجد صورة مغايرة تماما . . نجد نفسيات قد أعطت ذاتها خالصة لله ورسوله ، ولم تأل جهداً فى التعبير عن إيمانها ، وتصوير يقينها الإسلامى تصويرا لا يقبل الشك ولا الاهتزاز أمام الدعة والأمن ، ولا يتراجع أمام التضحية والفداء . . لقد خرجوا كفريق متكامل مع محمد – صلى الله عليه وسلم – تاركين أموالهم

وذراريهم ودورهم حباً لله ورسوله ومن أجل العقيدة الجديدة التى وجدوا فيها ذاتهم وروحهم ، وخرجوا كفريق متكامل مع محمد صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أن طريقهم صعب وملىء بالمشقات والعذاب . . ولـكن ما أعذب العذاب فى سبيل الله . . !

يوم وصلوا بالبشر والنور إلى منطقة الأمن والخضرة لم يضعفوا أمام داعى الجهاد والكفاح . ذهبوا إلى بدر وحاربوا فى أحد والخندق ، وقهروا « يهود » فى عقر دارها وحاصروها ثم انتشروا بعدئذ يبشرون بنصر الله والفتح ويكسرون شوكة البغى لدى دولة فارس ، ويحطمون طغيان الرومان ، ويزرعون السلام والحب والمساواة والإخاء فى كل شبر يمرون عليه أو يحلون به . .

لقد كانوا مثالا فذا للإيمان الراسخ والعقيدة الخالصة ويتحركون من خلال إيمانهم وعقيدتهم بيقين إسلامى يحمل مقومات الإنسان فى صورته الفاضلة والنيرة والواقعية (**إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى**) (الكهف : ١٣) فاللهم ارزقنا نعمة اليقين وصفاء أصحابه الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه . . ذلك لمن خشى ربه .

الداعية الإسلامى
« الفكرة والنموذج »

١ ـ الداعية الإسلامى بالمعنى المتكامل يكاد يكون مفقوداً . ولسنا ندرى سبب ذلك تماما فالساحة الإسلامية ملأى بالذين يلوكون كلاما مكررا محفوظا دون أن يحتوى على ذرة من الحيوية والحرارة ! وكلامهم إنشاء مل الناس سماعها وما عادوا يستسيغون تكرارها على آذانهم . والساحة الإسلامية تغص بالمصابين بانفصام الشخصية بين القول والفعل ، والكلام والسلوك . . ومن ثم فقد أعرض الناس عن خطبهم ومقالاتهم لأنهم يفتقدون شرط الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة . والساحة الإسلامية ملأى بالذين يضيعون جهودهم فى التشنج والانفعال دون إدراك لطبيعة القضايا التى يعالجونها أو يتحدثون فيها أو يحكون عنها . والساحة الإسلامية تضج بالمفرغين والذين لا يملكون حق الكلام فى الإسلام وقضاياه . ولكنهم بحكم ظروف القهر والمحنة مقدمون رغم أنف الناس ! لقد أعطوا الرخص اللازمة واحتلوا مقاعدهم **« وكان الله بكل شىء عليما » !!**

ومن هنا فالساحة الإسلامية تفتقر إلى هذا الداعية الإسلامى الذى تتدفق الحيوية فى كلماته والحرارة فى سلوكه ، والذى يصل كلامه من فمه إلى قلب الجمهور مباشرة ودون وساطة ويتصل قوله بفعله وكلامه بعمله ، فهو على النهج سائر وعلى الطريق قائم ، قد جمع إلى

القدوة الطيبة شرف الأسوة الحسنة ، وفوق هذا كله وضع الحق فى نصابه ، وتسلح لذلك بالبحث المستمر والدرس الدائب والثقافة الرفيعة الرحبة ، والفهم المستنير فلم يصرفه شاغل ما عن جلال الدعوة وعظم شأنها .

لقد ووجه الإسلام بعد ضعف أهله وذويه مواجهة ضارية تناولت كل ذرة فى كيانه الكبير ، وكانت وما زالت الأسلحة التى يواجه بها من أمضى الأسلحة وأكثرها فتكا ، لأن أعداءه نظروا إليه نظرة جادة حملت معنى ما تنطوى عليه قيمه من تهديد لوجودهم القائم على الظلم والطاغوت والاستبداد والإقطاع . . ومن ثم شرعوا كل أسلحتهم الماضية والفتاكة لمواجهته وتدميره إن استطاعوا ، وقد تحقق لهم الكثيرة من الكسب بلا شك حين سيطرت الصليبية الغربية على العالم الإسلامى ومزقته إربا ، وقطعته دويلات هزيلة لا حول لها ولا طول ، انشرت بين أناسه أفكارا وقيما غريبة : ميعت شخصيتهم ، وأذابت هويتهم ، وحولتهم إلى تابعين أذلاء ومقلدين مقيدين ، وعالة على الحضارة الراهنة ، وعبئاً على التاريخ فى العصر الحديث !

٢ ـ وكان المفروض أن يكون المسلمون قد تجاوزوا فى أيامهم الراهنة محنة القصور الذاتى الطارئة ، وانتقلوا إلى مرحلة المشاركة الإنسانية فى صنع الحضارة العالمية المعاصرة . . ولكن نجاح أعدائهم النسبى قد أخر مسيرتهم وعطل حركتهم عن الركب الإنسانى ، وبدلا من أن يتوجهوا إلى ذاتهم وينقبوا داخلها ويبحثوا عن جوهرها ،

ويتعرفوا على مناطق القوة فيدعموها ، ومناطق الضعف فيعالجوها ، بدلا من ذلك انغلقوا داخل أطر هامشية وشغلوا أنفسهم بقضايا جزئية وتناسوا جوهر الموضوع ، وعاشوا مع الأسى والنواح والتشنج والصياح ، بينما أمم أخرى صنعت منها المحنة أمما عظمى وقوية وجديرة بكل تقدير مهما كان رأينا فى منهجها أو عقائدها !

إن دولة مثل اليـــابان بدأت السير على طريق الحضارة بعد أن بدأ محمد على فى إقامة النهضة الحديثة بمصر ... ولـكن الفارق اليوم شاسع جداً ، إذ وصلت اليابان – رغم الدمار الذى لحقها فى الحرب العالمية – إلى مرحلة الدولة المتقدمة التى تنافس الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وألمــانيا الغربية . . . ووصول اليابان إلى هذه المرحلة لم يأت اعتباطا أومصادفة ، ولم يكن نتيجة السير فى ركاب الدول الغربية انبهارا بها وافتتانا ، وإنما كان بالدرجة الأولى بعثا لمكنون الشخصية اليابانية بعقائدها وعاداتها وتقاليدها العريقة وروحها المتوثبة ، وانتصاراً لذاتهم القادرة على الفعل والعطاء والاستمرار فى هذا العطاء ، مع الانتفاع بكل العناصر الخارجية التى تضيف إلى شخصيتهم وتمنحها مزيداً من العمق والازدهار . . وما زال اليابانيون يحتفظون بنظام الأسرة ويقدسون الإمبراطور ، ومازالت المرأة تخلع حذاء الرجل ! لقد اقتحموا عقبة التخلف دون خوف من زراية أو خجل من واقع أو معرة من عرف وعقيدة .

٣ – ونحن المسلمين نملك الكثير من المقومات والطاقات ، ولا نقل

بحال من الأحوال عن أولئك اليابانيين وغيرهم ممن استيقظوا بعد رقدة العدم ، وبعثوا من الأجداث الدنيوية أحياء يؤثرون فى العالم ويهزونه بكل قوة واقتدار . . ولا أود أن أتحدث عن ماضينا رغم نصاعته وإشراقه وقوته ، ولن أتكلم عما فعله أجدادى الذين كانوا لا يملكون من حطام الدنيا شيئا ، ورغم ذلك استطاعوا بناء حضارة خالدة ونشروا الإسلام فى ربوع العالم وهدموا صروح الطاغوت وحرروا الشعوب وعمروا الأرض عمارة المؤمنين الأتقياء الورعين بفضل عقيدتهم السمحة وقوة يقينهم الذى لايتضعضع . لن أقول شيئاً عن هؤلاء الذين أشعوا وأضاءوا وأناروا وعلموا ولكن الذى أريد قوله هو اننا فى واقعنا المعاصر مازلنا نملك أسس النهضة الإسلامية الحقيقية والمأمولة : فلدينا العقيدة والإنسان ، وعندنا الطاقة والاستعداد . ولكن الذى ينقصنا كمجموعة إسلامية تمثل القوة الثانية عدديا فى العالم بعد المجموعة المسيحية ،كوننا لانفهم واقعنا بمقوماته وإمكاناته فهما جيداً ومنطقيا..لماذا؟

لعل لذلك أكثر من سبب ، ولكن السبب الأساسى فى داخلنا نحن ، بين خلايانا وتحت الجلد . . إنه اختفاء الرغبة المدعمة بالفعل للنهوض ! إن الرغبة المدعمة بالفعل هى السبيل لخروجنا من دائرة التخلف ، وهى ضرورية لوجودنا ــ كأفراد ــ ولوجودنا ــ كمجموع ــ ولو تحققت هذه الرغبة الفعالة لاستطعنا أن نقهر القهر ، ونغزو التخلف ونقطع دابر الطغيان ونزيل آلام الأمس ونفتح طريق الغد لأمة مسلمة قوية ينظر إليها الناس بالاحترام اللازم والتقدير الواجب . يقول الحق تبارك وتعالى : « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (الرعد: ١١) ويقول : « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله**

والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »
(التوبة: ١٠٥) وكما نرى فى الآية الثانية ونفهم من الآية الأولى ،
فإن هناك أمراً إلهيا صريحا لضرورة العمل . . . العمل المسئول من
أجل الدنيا والآخرة والدين والدولة والفرد والمجموع ، وهو بالضرورة
يقوم على الرغبة الصادقة والنية الخالصة واليقين الثابت . وإنطلاقا من
هنا فإن العمل الإسلامى يخطو بالجماعة الإسلامية خطوات مباركة
لأن العاملين عندئذ ، وهم مجموع المسلمين يتحركون على أساس
العقيدة السمحة وعطائها السخى . لا يكلون ولا يفترون ، لا يخجلون
من كونهم مسلمين ولا يعترون من دينهم الحنيف ! !

٤ — ولعل جانب القصور الذى أجهض كل الحركات الطامحة
للنهضة الإسلامية فى العصر الحديث يتمثل فى أنه كان وما زال
يتنازعها تياران ، التيار الأول : ويعنى بتطوير البلاد الإسلامية تطويرا
صوريا يعتمد على تغيير أنماط الحياة من عادات وتقاليد ولباس وطريقة
سلوك وما يتبع ذلك من استحضار الوسائل المادية المعينة على ذلك .
وهذا التيار كان بالضرورة معاديا للإسلام والمسلمين لأنه خلا من
الفكرة الإسلامية كأساس حيوى اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا
. . ثم لكونه موجها فى معظم الأحيان من قبل جهات أجنبية استعمارية
أو من هيئات محلية تمثل الشعوبية المعاصرة فى أقبح صورها وأحطها ! !
وللأسف فإن هذا التيار بما حمله من بريق مزيف قد بهر بشكله الخارجى
كثيرا من المسلمين ، وإن أنكره بعضهم فى حينه ، أما التيار الثانى :

فقد اعتمد على بعث الشخصية الإسلامية وتجديد الفكر الإسلامى . ونستطيع هنا أن نلاحظ أن كثيراً من أنصار هذا التيار لم يفهموا معنى البعث ، وبالتالى لم يفهموا الواقع المحيط بهم داخل الأرض الإسلامية وخارجها على السواء . وكان قصورهم واضحا فى التركيز على بعض القضايا الجزئية وإغماض أعينهم عن الواقع الإسلامى فى إطاره الشامل والعام .

إن أسلوب الغزو الفكرى الحديث يعتمد على إشغال المفكر الإسلامى أو الداعية بأمور سطحية وتافهة فيعمى عما يجرى وحقيقة ما يحدث بالفعل ، ويبدد جهده هدرا ووقته سدى . . ونستطيع أن نرى فى قضية « زى المرأة » كمثال كل ذلك . أن هذه المسألة ترتبط أساسا بقضية كلية هى إسلام المرأة وتدينها أو تمسكها بالدين ، وجوهر الحكم القائم ، وطبيعة الواقع الاجتماعى وارتباطه بالإسلام أو ابتعاده عنه . . . . الخ هذه القضية كانت ومازالت تستنزف الكثير من الجهد والوقت فى حين أن تربية المرأة إسلاميا ، وقبلها تربية الرجل وتأصيل العقيدة فى وجدانه ستحل المشكلة دون عناء . . إذ أن المرأة المسلمة حقاً سوف تلتزم بدينها كاملا ولو كره المفسدون فى الأرض ، وسوف تنفذ تعاليم الدين كاملة وتتجنب ما يحرمه هذا الدين . . كذلك الرجل المسلم يقينا فإنه سينفذ ما أمرت به الشريعة ويبدأ بنفسه وبيته ولو كره المجرمون . . ولا يمكن لعاقل أن ينتظر من إنسان مفرغ من الدين والقيم والمثل أن يفهم لماذا هذا حرام وذاك حلال !

إن حل القضايا الكلية من جذورها سوف يتبعه بالضرورة حل القضايا الجزئية ! وهذا ما افتقده أصحاب النظرة الجزئية والمحدودة .

هناك فريق آخر شذ عن هذا التيار وإن كان ينتمي إليه أساسا ، اعتمد فى نظرته إلى البعث الإسلامى على نظرة شاملة وكاملة ، إذ رأى أن الإسلام كنهج حياة متكاملة كل لا ينفصل بين دين ودولة أو دنيا وآخرة أو عقيدة دينية وأفكار اقتصادية واجتماعية . . إنه كل ذلك جميعاً ، وبناء عليه فإن من متطلبات هذا البعث وجود المسلم الحقيقى فكرة وسلوكا ثم انطلاق نحو إقامة مجتمع إسلامى عادل ونظيف تسود فيه شريعة الله ويسمو فيه نظام التكافل الاجتماعى ، وأخذ بأسباب الحياة المادية للارتقاء وبناء القوة الأسلامية المعتمدة على الإمكانات الهائلة بشريا واقتصاديا وتقنياً .

وللأسف فإن هذا الفريق الأخير قليل جداً وصوته لا يصل إلى كل الأسماع . ولسنا ندرى سر ذلك على وجه اليقين ، ولكن المؤكد أن السيادة القائمة فى مجال الدعوة مازالت معقودة للذين لا يفيدونها فى كثير أو قليل ، ناهيك عما يعود على الإسلام من أثر تصرفاتهم من انطباعات خاطئة ومفاهيم رديئة ننزه عنها شريعة الله الغراء .

٥ ــ إن نظرة فاحصة إلى أسلوب التبشير ، وطرق محاربة الإسلام وغزو الميدان الإسلامى لابد أن تجعلنا نفكر كثيرا فى الأسلوب والمنهج الذى نتبعه فى إيصال الدعوة الإسلامية إلى الناس مسلمين وغيرهم ذلك أن هذا العصر الذى ذابت فيه الحدود الجغرافية والزمنية بين

الدول وبعضها ، وتقاربت الأفواه من الآذان بتطور المواصلات والاتصالات يجعل من الضرورى أن يفكر الداعية الإسلامى كثيرا قبل أن يقدم على أى خطوة كى يكون لكلماته التأثير اللازم ولسلوكه الأثر الحميد والحق سبحانه وتعالى يقول : « **قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى** » (يوسف : ١٠٨) ولعل البصيرة فى زمننا تمثل للدعاة المسلمين أن يكونوا قدوة منتقاة ، راسخى العقيدة ، أقوياء اليقين ، على علم ووعى ومعرفة بواقعهم والواقع المحيط بهم تاريخا وحاضرا وغداً منتظرا .

ومن ثم فإننا نرى أن إعداد الداعية الإسلامية إعدادا علميا أصبح يفرض نفسه فرضا وهو إعداد يتطلب أن يكون الدعاه من خيرة الطلاب شفافية روح ، وبسطة جسم ، وقوة فكر ، ونصاعة بيان ، وعلو همة ، وعزة نفس ، مزودين بثقافة راقية وإلمام شامل بأكثر من لغة أجنبية ليفهموا الآخرين ويدخلوا إلى أفهامهم .

٦ - ولو سأل الداعية نفسه لماذا يقوم المبشرون بدراسة الدين الإسلامى والأدب العربى وفروع الإبداع والفكر الأخرى الذى أنتجته القرائح والعبقريات الإسلامية فى كافة العصور . . لو سأل داعيتنا نفسه هذا السؤال لأدرك أن التخطيط وفهم الأفكار الأخرى لابد منها للداعية كى يكون على مستوى المسئولية التى تفرضها الدعوة الإسلامية على القائم بها .

إن التخطيط ضرورة للعمل المنظم والإنجاز الملموس وتوفير الوقت والجهد ، وفهم الأفكار الأخرى مما يسهل للمرء معرفة مواضع الضعف ومواضع القوة فيستطيع أن يرتب فكره وجهده ليتواءم مع الظروف التي تقابله ، وبغير ذلك فإن أي جهد يبذل يكون عرضة للإهدار والضياع !

٧ ـ من هنا نفهم مثلا لماذا كان تأثير « محمد إقبال » قويا وعظيما ، ولماذا كان فكر « مالك بن نبي » له أهمية لدى المتلقين ، ولماذا يهتم الناس بما يقوله ويكتبه « عيسى عبده » ونستطيع أيضا أن نفسر ظاهرة الإقبال الشديد على مؤلفات الكاتب الإسلامي الشهير « وحيد الدين خان » . .

بالطبع فإن هناك نماذج متعددة لا نستطيع تفسير ازدهارها ورسوخها وشموخها إلا بتفانيها في خدمة الدعوة وفهمها لأصولها والأخذ بالأسباب التي تجعل الصلة بينهم وبين المدعوين دائمة لا تنفصم . . وبعد :

فإن تكوين الداعية الإسلامي ليس أمراً بسيطا أو هامشيا ، بل إنه صعب وضرورة للنهوض من رقدة العدم وقيادة الإنسانية بقيمنا الشريفة إلى بر السلام والأمان .. وعلينا أفرادا وجماعات وهيئات أن نسهم في بعث أمتنا ،ونوفر السبل الممكنة واللازمة لهذا البعث ؟ وعلى الله قصد السبيل . .

نمــوذج من السلف الصالح :

الإمام ابن تيمية - شاهد على عصره

« تأملات فى كتاب السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية »

لم يكن الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية مجرد عالم من علماء الدين المسلمين فى القرن السابع الهجرى بل كان شاهدا على عصره الذى ولد وعاش فيه . وكانت شهادته على عصره بالفكر والوعى مع الفعل والقدرة . فقد كان فقيها وعالمـا بالسنة والشريعة وفوق ذلك كان أديبا ومؤلفا ثم توج ذلك كله بجهاده ضد القهر والغزاة ، فكان داعية فريدا فى أوانه وزمانه .

ولد الشيخ تقى الدين أحمد بن تيمية فى حران سنة ٦٦١ هجرية ، ونشأ بدمشق وتلقى علومه على المذهب الحنبلى ، وهو سليل أسرة عريقة ومتدينة، فأبوه كان من كبار الحنابلة وأئمتهم وكان جده الشيخ عبد السلام بن عبد الله من أئمة فقهاء الحنابلة وكان محدثا أصوليا ومفكرا .

وكتاب ابن تيمية « السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية » يعد من خيرة كتبه التى تحدث فيها بصدق العالم وإخلاص المؤمن عن العلاقة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم فى المجتمع الإسلامى ويقينى أنه

رضوان الله عليه كتبها بوحي من إيمانه واستلهاما لتجربة ضارية بين الحق والباطل خاضها بشجاعة المقاتل المجاهد دون أن ينتكس أو تصيبه هزيمة اليـــأس .

لقد ولد ابن تيمية والمجتمع الإسلامى حوله يغص بالخرافات والشعوذات والبدع والمظالم ، بالإضافة إلى حشود هائلة من الفرق الإسلامية من أصحاب المذاهب المختلفة وكان عليه أن يخوض عباب هذه التجربة الضارية ، وأن يفسح بالقوة مجالا لحركة العقل الإسلامى . . لا بل الشريعة الإسلامية وأن يعيد للقرآن والحديث سيادتهما المطلقة فى تقنين الظواهر الإسلامية الاجتماعية وتفسيرها . ويأتى بعدهما دور محدود للاجماع والاجتهاد .

وقد أوضح ابن تيمية فى كتابه السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية شهادته على عصره ومجتمعه بما أودعه هذا الكتاب من تفصيل جيد ودقيق للعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين المحكومين بعضهم بعضا . فتحدث عن الولايات وعن حدود الله وحقوق الناس ليخلص فى النهاية إلى صورة حقيقية واقعية للمجتمع الإسلامى كما أرادته السماء وكما كان فى عهده الأول ،عندما بناه الرسول عليه الصلاة والسلام .. معتمدا على القرآن الكريم والسنة . . حتى كان أفضل الصور لأى مجتمع متماسك البنيان ، قوى الإيمان .

لم يعبر ابن تيمية عن هوى فى نفسه ، ورغبة فى ذاته ، وإنما كان يقصد الحق الصراح الذى لا تشوبه شائبة مؤسسا كتابه على الآيتين الكريمتين :

« **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به ، إن الله كان سميعا بصيرا . يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا** » (النساء ٥٨–٥٩) .

ويعتبر ابن تيمية الولاية من الأمانات ، ولذا أدرج الحديث عنها فى الباب الأول والذى أسماه أداء الأمانات . ولقد اعتبرها حقاً يجب أداؤه كما أمر الله فى إطار من العدل . يقول الشيخ ابن تيمية نقلا عن بعض العلماء « نزلت الآية الأولى فى ولاة الأمور وعليهم أن يؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ونزلت الآية الثانية فى الرعية بين الجيوش وغيرهم أن يطيعوا أولى الأمر الفاعلين لذلك ، فى قومهم وحكمهم ومغازيهم وغير ذلك « الا أن يؤمروا بمعصية الله تعالى . فإذا أمروا بمعصية الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فان تنازعوا فى شيء ردوه إلى الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وإن لم يفعل ولاة الأمر ذلك أطيعوا فيما يأمرون به من طاعة الله ورسوله ، وأديت حقوقهم إليهم كما أمر الله ورسوله « **وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان** »

وإذا كانت الآية قد أوجبت أداء الأمانات إلى أهلها ، والحكم بالعدل ، فهذان جماع السياسة العادلة والولاية الصالحة) .

ومن ثم فإنه يرى أنه لابد من تولية الأصلح وفى الحديث الشريف « من ولى من أمر المسلمين شيئاً فولى رجلا وهو يجد من هو أصلح للمسلمين منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » ويورد قصة مشهورة عن عمر بن عبد العزيز الخليفة العادل . قال بعضهم : أدركت عمر عبد العزيز فقيل له : يا أمير المؤمنين أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، تركتهم فقراء لاشيء لهم ، وكان فى مرض موته فقال : أدخلوهم على ، فأدخلوهم عليه وهم بضعة عشر ذكرا ليس فيهم بالغ ، فلما رآهم ذرفت عيناه ثم قال : « يا بنى » والله ما منعتكم حقاً لكم ، ولم أكن بالذى آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم وإنما أنتم أحد رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين ، وإما غير صالح فلا أخلف الله له ما يستعين به على معصية الله ، قوموا عنى . قال الراوى فلقد رأيت بعض ولده حمل على مائة فرس فى سبيل الله ، يعنى أعطاها لمن يغزو عليها .

وسوف ندهش إذا عرفنا أن عمر بن عبد العزيز ترك ميراثا قليلا فقد حصل كل من أولاده على شيء يسير من المال أقل من عشرين درهما . بينما أبناء خليفة آخر ورث الواحد منهم ستمائة ألف دينار لم يبق لهم منها شيء وصاروا يتكففون الناس أى يسألونهم بأكفهم وفى هذا الباب — يقول ابن تيمية — من الحكايات والوقائع المشاهدة فى هذا الزمان والمسموعة عما قبله ما فيه عبرة لكل ذى لب .

ويقرن ابن تيمية بين الوالى والقاضى أو بين الحكم والعدل . . يربط بينهما بصورة كاملة ويرى أنه لابد فى الولاية أن تجتمع القوة إلى الأمانة ، فقد وصف سيدنا موسى بالقوى الأمين ، ويرى أنه إذا جاز ولاية غير الأهل للضرورة إذا كان أصلح الموجود ، فإنه يجب السعى فى إصلاح الأحوال حتى يكمل فى الناس ما لابد لهم منه . ويعلمنا ابن تيمية كيف ننتقى الأصلح وأن أساس الصلاح هو الدين والصلاة التى هى عماد الدين . وركز ابن تيمية على الصلاة تركيزا شديدا باعتبارها المظهر القوى والأصفى للإيمان .

ويتحدث عن الأموال ويصنفها ومن خلال التصنيف لا ينسى حديث الظلم والعدل ، ويذكر الظالمين ووكلاءهم بأنهم يحشرون فى توابيت من نار جزاء وفاقا كما أخبرتنا السنة . ويرى أن المسلم الحق هو الذى يغضب لربه أولا ولحرمات الله المنتهكة ، ويستشهد بما ورد عن عائشة رضى الله عنها — قالت : « ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما له ولا امرأة ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله ، ولا ينال منه شىء فانتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمات الله ، فإذا ما انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شىء حتى ينتقم لله » .

كما أن الصالحين من أرباب السياسة الكاملة — يقول ابن تيمية — هم الذين قاموا بالواجبات وتركوا المحرمات وهم الذين يعطون ما يصلح الدين بعطائه ، ولا يأخذون إلا ما أبيح لهم ، ويغضبون لربهم إذا انتهكت محارمه ويعفون عن خصومهم ، وهذه أخلاق رسول الله

صلى الله عليه وسلم في بذله ودفعه وهى أكمل الأمور ، وكلما كان المسلم أقرب إليها كان أفضل ويؤكد ذلك بقول الله تعالى : « **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** » .

أما حدود الله فهى محك تنفيذ العدالة ومجال الاختبار الضارى ، وامتحان اليقين وعندها تسقط القرابة والمجاملة والخوف . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله أمره ومن خاصم فى باطل وهو يعلم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع ، ومن قال فى مسلم ماليس فيه حبس فى ردغة الخبال حتى يخر مما قال « قيل يا رسول الله ، وما ردغة الخبال ؟ قال : عصارة أهل النـــار » .

ويجب على الولاة إقامة الحدود من غير دعوى أحد — لأن المقصود من إقامتها هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (آل عمران : ١٩٠) واستتباب الأمن والنظافة الخلقية والحرية فى إطار السماحة الإسلامية ، وهى أساس الحركة التى تعود على المجتمع الإسلامى بالخير والنفع والتقدم وعبور العقبات .

وإذا كنا نقطع يد السارق ونجلد أو نرجم الزانى ، ونضرب الشارب ونعدم المفسدين فى الأرض ونعزر من يقلق المجتمع المسلم ويزعجه ، فإنه يتعين على المسلمين جميعا أن يقوموا بإقامة الحد الجماعى ضد الخارجين على المجتمع ، أو الجهاد الجماعى ضد الظـــلم

والقهر الذى يفرضهما الطاغوت الخارجى « **حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » (الأنفال : ٣٩) « **يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم** (المائدة : ٥٤) .

ورد أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله : أخبرنى بشىء يعدل الجهاد فى سبيل الله . قال لا تستطيعه . قال : هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر ؟ قال : لا . قال : فذلك الذى يعدل الجهاد » . وقال : لكل أمة سياحة وسياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله » .

ويرى ابن تيمية أن نفع الجهاد عام لفاعله ولغيره فى الدين والدنيا ، ومشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة ، فإنه مشتمل على محبة الله تعالى والإخلاص له والتوكل عليه وتسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنواع الأعمال مما لا يشتمل عليه عمل آخر ، والقائم به من الشخص والأمة بين إحدى الحسنيين دائماً : إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والجنة .

ثم إن الخلق لابد لهم من محيا وممات ، ففيه استعمال محياهم ومماتهم فى غاية سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وفى تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما فريق من الناس من يرغب فى الأعمال الشديدة فى الدنيا قلة منفعتهما فالجهاد أنفع فيها من كل عمل شديد ، وقد يرغب فى

ترفيه نفسه حتى يصادفه الموت فموت الشهيد أبر من كل ميتة وهى أفضل الميتات .

وأعظم عون لولى الأمر ، خاصة فيما يرى ابن تيمية ، ولغيره عامة ، ثلاثة أمور . أحدها الإخلاص لله والتوكل عليه بالدعاء وغيره ، وأصل ذلك المحافظة على الصلوات بالقلب والبدن . والثانى : الإحسان إلى الخلق بالنفع والمـال الذى هو الزكاة . الثالث : الصبر على أذى الخلق وغيره من النوائب .

ولابد من أخذ حقوق الناس لتستقيم العدالة ولابد من القصاص فى الجراح والأعراض والدية لتطيب النفوس وترضى .

ويختم ابن تيمية كتابه القيم بحديث عن الشورى ، فلم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل إن الله أمر بها نبيه ليتألف قلوب الصحابة وليقتدى به من بعده ، وليستخرج منهم الرأى فيما لم ينزل به الوحى من أمر الحروب والأمور الجزئية وغير ذلك من الأمور . فغيره صلى الله عليه وسلم أولى بالمشورة ، وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك فى قوله تعالى : « **وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون . والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون . والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** » (الشورى : ٣٦/٣٨) وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الله يرضى لـكم ثلاثا أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، وإن

تناصحوا من ولاه الله أمركم » . ويشدد ابن تيمية على رفض الإسلام للعلو فى الأرض بالكبر والفساد ، ويرد ذلك إلى مثل فريد وظاهر وهو « فرعون » الذى علا فى الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم « **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فســادا والعــاقبة للمتقين** » (القصص : ٨٣) .

رحم الله ابن تيمية فقد كان عالما مخلصا ، ومجاهدا كريما على نفسه ودينه ، وأنموذجا ممتازا للداعية الإسلامى وللدعوة الإسلامية فكرا وسلوكا وكان خير شاهد على عصره .

نموذج معاصر:
أنور الجندى .. فى كتابه
«العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى»

أومن إيمانا كاملا بأن الدعوة الإسلامية فى أيامنا الراهنة ؛ يجب أن يصاحبها وعى عميق بمفاهيم الدين الإسلامى وتاريخه ودوره الإنسانى ؛ من الطبقة المثقفة خاصة ، ومن بقية الطبقات عموما . . ذلك أن حركة التاريخ فى المحيط الإسلامى وانتقال أهله من نير العبودية والاستعمار إلى آفاق الحرية والاستقلال يجعل من الضرورى اللازم أن تسود الحضارة أو البناء الحضارى الإسلامى معنويا وماديا فوق كل شبر من أرض الدولة الإسلامية الكبيرة .

ولسبب أو لآخر تفشى وهم كبير يوحى بأن الدين الإسلامى لا يستطيع أن يستوعب الحضارة المعاصرة ، ولا يستطيع أن يتمشى مع متطلبات القرن العشرين ، وما يليه من قرون ان كان ثمة حياة أو أحياء . . ولا يجد المرء فى الرد على ذلك سوى أن يتمثل جوهر هذا الدين ويقلبه على وجوهه ؛ فيرى أنه الدين الوحيد الذى أعطى الإنسان الحرية المطلقة فى التحضر والترقى وأعتقه من رقة القيود الكهنوتية والوساطة الدينية ؛ ليعمل بكل قواه فى سبيل المجد والرفعة وليتخذ

من قيمه ومثله طريقا إلى الإنسانية بصورتها المثالية التى يحلمون بها فى عصرنا الحديث ، وينادى بها الفلاسفة والمفكرون الغربيون .

بيد أننا للأسف ، وتلك حقيقة علمية - مازلنا متخلفين فى ميدان الدعوة الإسلامية ، وليس هذا تحاملاً أو نوعا من تعذيب الذات بل هو الحقيقة تؤكدها أدنى مقارنة بين طريقتنا نحن المسلمين وطريقة غيرنا من المبشرين فى الدعوة والترويج لأفكارهم ومعتقداتهم . ولكن يعزينا فى هذا المجال أن الإسلام بطبيعته ينتشر تلقائيا ، ولديه القدرة على النمو الذاتى فى أصعب الظروف وأشدها قسوة نظرا ؛ لما يحمله جوهره من رحابة إنسانية تشبع التطلع البشرى إلى إقامة علاقة قوية بالخالق جل وعلا .

وللحقيقة والإنصاف لا ننكر أن هناك من رجالات الفكر المسلمين وعلمائه قوماً مخلصين يدأبون على العمل فى صمت من أجل الإسلام ، دفاعا عنه ودعوة إليه بالقلم الطاهر والعقل الرحب والفهم العلمى الصحيح ، ومن هؤلاء القوم الأستاذ أنور الجندى الذى قدم للمكتبة الإسلامية كتابه « العالم الإسلامى والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى والفكرى » . . وهو سفر جليل يعتز به كل مسلم فى أيامنا الراهنة ، ونعتبره خطوة متقدمة على طريق الدعوة الإسلامية المعاصرة ، نظراً لما يحتويه من تفصيل عظيم وتوضيح كبير لدور المسلمين الذى ظل مجهولا فى الحركة التحررية الحديثة ، ومقاومتهم لأعداء الإنسان فى كل زمان ومكان .

والأستاذ أنور الجندى طراز معين من المفكرين الإسلاميين له طابعه الخاص فى تناول أحداث التاريخ المختلفة على مستوى الأبطال والزعماء والجماعات . وهو ذو رأى خاص فى الفترات التى مر بها الإسلام والرجال الذين اشتهروا خلالها ، تسانده فى ذلك أدلة وبراهين .

ويتناول الكتاب المرحلة التى عاشها العالم الإسلامى منذ عام ١٣٤٠ ميلادية إلى سنة ١٩٤٠ أو بدايات الحرب العالمية الثانية، وهى الفترة التى اشتد فيها صراع الاستعمار مع المسلمين واستطاع خلالها أن يحرز بعض انتصاراته ويخضع كثيرا من دول العالم الإسلامى إلى سيطرته ويستغلها اقتصاديا وسياسيا ، ويتخدها مرتكزا تتحرك فوقه استراتيجيته العسكرية لتأمين وجوده الحضارى وإمداده بالثروات الطبيعية والبشرية وغيرها .

ولقلة الكتاب المخلصين الذين تعرضوا للعالم الإسلامى؛ فإن الأستاذ أنور الجندى جاء بكتابه هذا ليسد ثغرة كبيرة فى محيط الدراسات الإسلامية المعاصرة ؛ وليتخلص من عيوب خطيرة سادت الدراسات الإسلامية كاعتمادها على المصادر الغربية غير المحايدة ، وتأثرها بنظريات الباحثين الغربيين غير المنصفين .. ومن ثم جاء كتاب الأستاذ أنور الجندى ليصحح كثيراً من المفاهيم الخاطئة والمغرضة «التى يدفع بها النفوذ الاستعمارى كأسلوب من أساليب استدامه وجوده بتدمير وجودنا» (ص ٩) ويضع المؤلف فى حسبانه حقيقة واقعة يعمل على إظهارها للمسلمين ليتفهموها جيداً . يقول الأستاذ الجندى :

« وللعالم الإسلامى حقيقة واقعة تلعب دوراً أساسيا فى سياسة العالم

بين الكتلتين الشرقية والغربية لها ثقلها فى ميزان التاريخ والسياسة الدولية والوجود البشرى . ولهذه القوة ميزتان (أولاهما) أنه عامل مؤثر ، وما من حدث وقع فى العالم كله منذ ظهور الإسلام إلى اليوم إلا كان له به صلة ما (والثانى) : أن العالم الإسلامى هو موضع الحساب والتقدير من مختلف سياسات الدول الأوربية الكبرى فلم يكن قط فى أى مرحلة من مراحل التاريخ قوة مهملة أو أثرا منكورا . (ص ٩) .

ويتحدث الأستاذ أنور الجندى فى مدخل الكتاب عن صمود الإسلام فى وجه الغزوة الإستعمارية العاتية ، ويفصح عن مقاومة الإسلام والمسلمين لعوامل الإذابة والانصهار فى بوتقة الاستعمار . . كما أنه يثير قضية القوميات التى يضمها العالم الإسلامى ويبين أنها ليست معارضة للإخاء الإسلامى وليست ضد مفهوم الإسلام ، وليس الإسلام فى مواجهة القوميات؛ وإنما يتقبل القوميات كعامل قوة ويدفع عنها التعصب والعنصرية ويجعلها مفتوحة للالتقاء مع وحدة الفكر التى تربط القوميات على صعيد الإسلام . (ص ١٤–١٥) .

وينقسم الكتاب بعد المدخل إلى ستة أبواب رئيسية . الباب الأول عن الإسلام وعالم اليوم ويتناول ، فيه الإسلام والأمة العربية ، وتركيا ومقاومة الغزو الغربى ، وإيران ، والشيعة ومقاومة النفوذ الأجنبى ، وأفغانستان ومقاومة الاستبداد الاستعمارى ، وباكستان ومسلمو الهند ثم أندونيسيا وأرخبيل الملايو وأخيراً . . إفريقيا قارة الإسلام . أما الباب الثانى فيتعرض لحركات الوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية

وقضية الخلافة . . وفى الباب الثالث يتحدث عن الأمة العربية ، وعالم الإسلام فيتحدث عن مصر والدعوات الإقليمية وحركات المقاومة العربية ، وثورة الجزائر والوحدة العربية .

وفى الباب الرابع يتكلم عن حركات الإصلاح فى العالم الإسلامى ممثلا بالدعوات الوهابية والسنوسية والمهدية ، وحركات جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، والسلفية ، والعلماء الجزائريين ، والمسلمين فى الهند والباكستان والحركات الصوفية ونتائج كل هذه الحركات فى الفكر الإسلامى المعاصر . وفى الباب الخامس حديث عن الثقافة فى العالم الإسلامى متناولا قضايا التعلم والثقافة واللغة العربية فى الهند وباكستان وأندونيسيا وإفريقية . ويعقد الباب السادس للكلام عن الاستعمار والتبشير والصهيونية والحركات الهدامة مثل البهائية والقاديانية والماسونية .

ومن خلال الخمسمائة صفحة التى ضمها الكتاب فى حجمه الكبير تبرز لنا عدة قضايا هامة ركز عليها المؤلف لأنها أغفلت تماما أو شوهت فى أذهان الكثير من المسلمين على المستوى العام ، وعلى صعيد مثقفى الإسلام أنفسهم .

ويستأثر الباب الأول والباب الرابع وكذا السادس بأهم هذه القضايا ، . ونستطيع أن نتابع هذه القضايا على النحو التالى :

أولا : حركة المقاومة الإسلامية فى تركيا وإيران والهند وأفغانستان .

وهى حركة طمست معالمها لدى المسلمين فى داخل مصر وفى الخارج نتيجة لظروف شتى قد يكون مصدرها الاستعمار وسواه . وقد أفرد الأستاذ أنور الجندى لهذه الحركات فصولا متعددة يشعر القارئ بعدها باندهاش كبير ويتساءل على الفور : لماذا لم نعرف ذلك من قبل عن إخوتنا المسلمين فى تلك المناطق ؟ لقد كنا نعلم أو نفهم أنهم استسلموا للواقع وابتعدوا عن المنبع الثر للإسلام ، واستسلموا لإرادة الغير من الغزاة وتوابعهم ورضوا بما جاءوا به واطمأنوا إليه ، بيد أننا لم نكن ندرى حقاً أنهم قاوموا وتحركوا رغم شدة القهر والإرهاب وظلوا فى أعماقهم مخلصين لدينهم وقيمه العظيمة .

فى تركيا يعطينا الكاتب تحليلا جيداً ومنصفا لدور السلطان عبد الحميد رحمه الله — فى مقاومة الاستعمار والصهيونية والماسونية .

وقد قال « محمد حسنين هيكل » : فى عام ١٩٤٩ « لم أشهد قوة الإيمان بالدين فى بلد شرقى إسلامى كما شهدته فى تركيا ((ص ٦٨) .

وفى إيران يركز المؤلف على دور الشيعة فى مقاومة النفوذ الأجنبى بزعامة « آية الله الكاشانى » أبرز الزعماء والمعارضين آنئذ « وقد تجلت هذه المقاومة فى مواقف حاسمة :

١ — معركة التنباك . ٢ — مقاومة الغزو البريطانى الفرنسى ٣ — مقاومة الاستبداد . ٤ — حركة تأميم البترول ، (ص ٨٥) . وفى أفغانستان تتمثل المقاومة الإسلامية فى أمرين خطيرين .

(أولا) : مقاومة الاستعمار الغربى مقاومة حاسمة جبارة اندحرت

فيها بريطانيا فى ثلاث معارك كبرى امتدت على مدى ثمانين عاما (ثانيا) دحض الخطة التى حمل لواءها (أمان الله) فى فرض الحضارة الغربية، ومن زعماء المقاومة الإسلامية فى أفغانستان (سرادار إقبال على شـــاه) (١) .

أما الهند فقد شهدت حركة تحريرية ومقاومة باسلة قادها المسلمون ضدالاستعمار البريطانى والتعصب الهندوسى . وقد أدت هذه الحركة إلى التحرير والاستقلال وإنشاء دولة الباكستان الإسلامية .

ونرى من خلال كتاب الأستاذ أنور الجندى أن « غاندى » لم يكن إلا واجهة وضعتها بريطانيا لزعامة الهنادكة ضد المسلمين وانتزاع زعامة الحركة التحريرية منهم؛ يؤيد ذلك حديثه الذى دار مع اللورد ريدنج . راجع (ص ١٢٢–١٢٧) وأبرز الزعماء المسلمين فى الهند وباكستان هو « محمد إقبال » الذى آمن بأن الحضارة الحديثة ليست إلا ازدهارا لبعض الجوانب الهـامة فى الفكر الإسلامى (ص ١١٩) وأصبحت نظريته الشهيرة « توكيد الذات » من أصلح النظريات

(١) فى هذا العام (١٣٩٩هـ–١٩٧٩م) توجت حركات الكفاح الإسلامى فى أيران وأفغانستان وتركيا بانتصارات باهرة ، حيث أسقط شاه إيران الطاغية على يد الثوار المسلمين بقيادة الإمام آية الله الخمينى ، وما زال الشعب الأفغانستانى يقود ثورته الإسلامية ضد نظام الحكم الشيوعى الذى يسيطر عليه الشيوعى محمد تراقى ، أما فى تركيا، فقد شهدت مدنها حركات عارمة من أجل العودة للاسلام والتخلص من العلمانية مما اضطر الحكومة إلى فرض الأحكام العرفية التى ما زالت قائمة حتى كتابة هذا السطور (رمضان ٩٩ هـ ـــ يوليه ١٩٧٩ م) وإن المسلمين هنالك لمنتصرون بإذن الله .

للتفوق الإسلامى على ما يكابده المسلم المعاصر من تشاؤم وجبرية قاتلة ، وانفصال عن روح التوحيد .

ثانيا : يناقش المؤلف مسألة القومية والدين ويبين دور مصر وفهمها للوحدة العربية؛ فقد حافظت على مكانتها فى العالم الإسلامى بحسبانها واجهة وحامية للتراث والفكر الإسلامى وبذلك بعدت عن القومية فى مفهومها العنصرى الحاد الذى يبلغ مرحلة العقائد أو يحل محلها؛ وبعدت أيضا عن المفهوم العلمانى الذى يفصل بين القومية الروحية وبين الدين أو الإسلام نفسه الذى كان دوما دينا وفكرا جامعا . (ص ٢٥٥) .

ويفسر الأستاذ الجندى صلة الإسلام بالقومية العربية فى تمثلها لجوانب الدين والدنيا فيقول إن الإسلام ليس ديناً وحسب بل هو حياة متكاملة ومن ثم فقد يترتب عليه أن يكون للمسلم ديناً ومنهج حياة ، وللمسيحى ثقافة قومية ومصدراً ثراً لمقومات الفكر والشعور والذوق والحياة .

فعلاقة الإسلام بالعروبة ليست إذن كعلاقة أى دين بأى قومية (ص ٢٥٧) ويشجب الأستاذ أنور الجندى كل محاولات الإقليمية الضيقة لبعث الفرعونية والفينيقية . والبربرية . . ويشجب أيضا ما أورده المرحوم « ساطع الحصرى » فى مفهومه للقومية ويعتبره غير متحر للحقيقة؛ وليس متمثلا مفهوم الفكر الإسلامى فى شموله وتكامله .

ثالثا : يرد الأستاذ الجندى اعتبار الحركة الوهابية من حيث جوهرها ومضمونها ، ويرى أن النفوذ الأجنبى غض من اسمها الحقيقى وأطلق عليها اسم الوهابية وأشاع هذه التسمية وأدخلها معاجمه الحديثة، وقدأخطأ

عمدا حين وصفها بأنها مذهب جديد فى الإسلام (ص٢٦٩) ويناقش الأستاذ أبرز معطياتها فى عملين كبيرين أولهما « أنها فتحت باب الاجتهاد فى الفروع بعد أن ظل مغلقا منذ سقوط بغداد سنة ٦٥٦هـ » وثانيهما : « ضرورة القيام بواجب الجهاد وإحياء هذه الفريضة التى أصابها الوهن ، وأنها – إلى ذلك – كانت ثورة عارمة على الاستبداد والضعف والانحلال الذى آل إليه حال العالم الإسلامى ، وكانت كذلك أول حركة تحريرية عربية إسلامية . (ص ٧٠) .

ويرصد الكاتب فى نهاية الباب الرابع النتائج التى حققتها دعوات المصلحين فى نقاط أبرزها : محاربة التقليد ، والدعوة إلى الإسلام الحقيقى ، وتطهيره من الشوائب ومناهضة الاستبداد ، ورفع لواء الانبعاث الإسلامى من القرآن .

رابعا : فى تأريخه للحركات الهدامة وعرض مشكلة الثقافة؛ يركز المؤلف على التبشير والماسونية . وللأستاذ الجندى كتاب مستقل فى التبشير وحركته عبر التاريخ . إنه هنا يعطينا أمثلة ونماذج لمدى الاهتمام الكبير الذى يوليه الكاثوليك فى الغرب لعملية التبشير – وما أحرانا نحن المسلمين أن نعتبر ونتأسى بما يفعله الغربيون من أجل الدعوة ، ومن ثم تكون حركتنا وانطلاقنا أكبر وأفضل من ذى قبل . وأثبت هنا قصة رواها الأستاذ الجندى فى كتابه حول هذه المسألة يقول :

« أما معاهدة تاليران التى عقدت بين الفاتيكان والدولة الإيطالية فقد حققت أن يستولى الفاتيكان بمقتضاها من الحكومة الإيطالية على

(٧٥٠ مليون ليرة إيطالية كتعويض عن حقوقها المالية التى توقفت منذ عام ١٨٧١ م عندما وقع الخلاف بينهما وكذلك على ربح قدره خمسة فى المائة لقرض إسمى قدره ثلاثة مليارات ليرة تصدره الحكومة الإيطالية) . . . وقد بلغ من أهمية هذه المعاهدة أن وصفها الأمير شكيب أرسلان بأنها من أعظم الحوادث التاريخية فى هذا العصر ، وقد استتبع ذلك أن أعلن الفاتيكان عن إنشاء معهد خاص لدراسة الفكر الإسلامى والعقيدة الإسلامية وذلك حتى يمكن المبشرين من مهاجمة الإسلام فى بلاده (ص ٤٥٢) .

ويعتبر الأستاذ الجندى حركة (الماسونية) طليعة الحركة اليهودية والصهيونية ؛ وتحدث عن دورها فى تقويض الدولة العثمانية وإسقاط الخلافة وخلع السلطان عبد الحميد وتشويه صورته لدى المسلمين .

وبعد عرض أهم قضايا الكتاب الذى نعده سفرا جليلا فإننا نقدمه لمن يهتمون بالدعوة الإسلامية فى كل مكان تذكارا طيبا ونافذة مفتوحة على أخطر القضايا المعاصرة فى تاريخ الفكر الإسلامى الحديث .

بيد أن لنا عدة ملاحظات نوجزها فيما يلى :

١ ـ نسى المؤلف أن يتعرض لحال المسلمين فى الفلبين والصين والأمريكيتين ويوضح موقفهم بطريقة شاملة . ونعتقد أن هناك عدداً لا بأس به من المسلمين يعيشون فى هذه المناطق ويعانون القهر والحصار ؛ وينبغى أن نتعرف عليهم ونحاول الاتصال بهم حضاريا .

وفى الصين وحدها أكثر من ٤٠ مليونا من المسلمين .

٢ ـ للأستاذ الجندى آراؤه الخاصة فى عديد من المفكرين الذين تعرضوا للإسلام . ونحن لا ننكر عليه آراءه ونظراته ، بيد أننا نود أن نقول إن هؤلاء لهم دورهم الذى لا يمكن التغاضى عنه ، حتى من الناحية السلبية فإننا نستطيع القول إنهم أثاروا نزعة البحث والاجتهاد ودراسة الماضى البعيد والحاضر القريب لدى غيرهم من علماء وباحثى الإسلام .

٣ ـ فى كثير من مواقع الكتاب يحدث تكرار ، وأعتقد أنه يجدر بأستاذنا الجندى أن يحاول التخلص من ذلك لأنه يشكل عبئا على الكتاب خاصة فى الكلام عن الاستعمار بوجه عام .

٤ ـ تنظيم الكتاب وتبويبه يحتاجان إلى جهد كبير لتلتئم الأوصال المتشابهة .

٥ ـ الأخطاء المطبعية : ـ أكاد أصرخ منها ـ وقد حاولت أن أصحح كثيرا منها ولكنى تعبت فلا تكاد تخلو صفحة واحدة من ذلك ؛ ولقد تحدثت إليه شخصيا فى أمر هذه الأخطاء ولكنه بدا لى مستسلما لهذا الأمر الذى شاع فى أكثر من كتاب قيم له ، متعللا بضيق الوقت وعدم التفرغ لمراجعة المطبعة(١) .

٦ ـ ثبت المراجع فى ثنايا الكتاب غير مستقر تماما . ونتمنى أن يكون المستقبل أفضل لتلافى مثل هذه الهنات .

ونأمل أن يطلع علينا الأستاذ الجندى بكتابه الجديد حول العالم الإسلامى فى الفترة الراهنة والتى تبدأ بالحرب العالمية الثانية .

---

(١) بهذه المناسبة أود أن أشيد بالكتب الكثيرة التى صدرت له فى الأعوام الأخيرة عن «دار الاعتصام» حيث جاءت فى ثوب جميل وخال من الأخطاء .

... ونموذج معاصر أيضا:

وحيد الدين خان .. الداعية والنموذج

— ١ —

يعتبر المفكر الهندى « وحيد الدين خان » من أبرز الدعاة الإسلاميين على النطاق العالمى فى الفترة الراهنة ، إذ أنه يقوم بجهد كبير . . رائع ومستنير فى سبيل الدعوة الإسلامية محتسبا هذا الجهد لدى الحق تبارك وتعالى . ومتقربا إليه فى تواضع شديد وأدب جم ، محاولا أن يكون ما قدمه مقبولا قبولا حسنا وطيبا .

وهو يختلف عن كثير من الدعاة المعاصرين فى ميدان الفكر الإسلامى . فهو واسع الاطلاع على نتاج الفكر المعادى للإسلام والمسلمين سواء فى العالم الغربى أو المعسكر الشيوعى أو دنيا الوثنية المعاصرة . كما أنه دائب اللقاء مع الجماهير المسلمة على امتداد الساحة الإسلامية فى الهند والباكستان من خلال مجلته الفكرية (الجمعية الإسلامية) ، وتصدر بالإنجليزية .

وإذا كانت لغته الإنجليزية التى يكتب بها تقف حائلا بيننا كعرب وبين نتاجه ، فإننا نشكر الظروف والأشخاص الذين هيأوا لنا فى السنوات الأخيرة فرصة الاطلاع على كتبه مترجمة سواء فى بيروت

أو القاهرة . ونود أن نوجه الشكر مرة ثانية إلى نجله « ظفر الإسلام خان » الذى قام بترجمة أهم كتبه « الإسلام يتحدى » و « حكمة الدين » وغيرهما .

وقد ظهر لهذا المفكر الإسلامى الممتاز مجموعة من الكتب الإسلامية ، تعد من أرقى الكتب التى صدرت عن الإسلام فى أيامنا الراهنة ، ولعل كثيرا من القراء يذكرون كتابه الشهير الذى ألمحنا إليه منذ قليل أعنى « الإسلام يتحدى » ومن بعده « الدين فى مواجهة العلم » ثم كتابه « حكمة الدين » ورسالته « نحو بعث إسلامى » ، ورسالته عن الإيمان والحركة الإيمانية . وقد أعلنت دار المختار الإسلامى بالقاهرة منذ فترة غير قصيرة ، عن عزمها على طبع مجموعة أخرى من كتب هذا المفكر تحمل العناوين الآتية :

« المسلمون بين الماضى والحاضر — الماركسية التى رفضها التاريخ — الاشتراكية — الاشتراكية والإسلام — الليبرالية فى العالم الإسلامى » .

ونرجو لدار المختار الإسلامى أن تحقق ماعزمت عليه ، كما نرجو من الدولة أن تذلل الصعاب التى تواجه حركة النشر الإسلامى فى مصرنا العزيزة من أزمة الورق وغلاء الأحبار وارتفاع أسعار التكلفة الطباعية على وجه العموم .

— ٢ —

من خلال كتب ورسائل « وحيد الدين خان » التى استطعنا الاطلاع عليها ، اتضح لنا أن هذا الكاتب الداعية يعتمد فى كل مايصدر عنه على

« موضوعية علمية » افتقدتها الدعوة الإسلامية طويلا ، وهذه الموضوعية تسقط من حسابها بالضرورة كل الانفعالات والتشنجات والخطابة الجوفاء والإنشاء والكلام الجاف وتناول القشور دون اللباب ، وقد اقتضت هذه الموضوعية العلمية أن يكون الكاتب مثقفا ثقافة إسلامية واعية وجيدة ، ويهتم اهتماما بالغا بتتبع ما يثار حول الفكر الإسلامى فى كل أنحاء الأرض وما يرتبط بهذا الفكر من ظواهر اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية ودينية وغيرها . . وقد أهله — أعنى وحيد خان — ذلك لتناول قضايا الإسلام عن طريق المقارنة والمثال مما أعطى للكتابة التى يطالعنا بها بعدا هائلا ومؤثرا وعميقا .

وقد أكمل هذه الموضوعية العلمية بأن نظر إلى ما يجرى داخل العالم الإسلامى : حياة المسلمين وواقعهم ، نظام الدعوة الإسلامية ، طريقة الدعاة — ثم انتقد السلبيات القائمة محاولا أن يبرز تصوره المدعوم بالتجارب عن مستقبل الإسلام والمسلمين ، والدعوة والقائمين عليها .

فضلا عن هذا ، فإن فهمه المتقدم للقرآن الكريم والسنة النبوية جعله يرفض التفسير الجزئى أو المحدود الذى يعتمد بعض النصوص دون بعضها الآخر ؛ مما يوقع أصحاب هذا التفسير فى العجز والقصور .

إنه بلا ريب متأثر فى منهجه من أجل الدعوة الإسلامية بالنماذج الطيبة والمشرقة التى ظهرت على مدى التاريخ الإسلامى الحافل ، وأثرت فيه تأثيرا قوياً وواضحا وعظيما ، وهم النماذج الوضاءة من

السلف الصالح ، العطر السيرة ، الناصع التاريخ . . وقد لاحظنا اهتمام « وحيد الدين خان » ببعض هؤلاء اهتماما واضحا مثل : ابن تيمية — ابن قيم الجوزية — الإمام الغزالى — ولى الله الدهلوى ، وقد قاده هذا الاهتمام إلى نوع من المحبة لهم لا يخفى ، يدل عليها اقتباســه منهم واثتناسه بآرائهم . . وحقاً لقد كان هؤلاء الأئمة من الذين أثروا تأثيرا بالغا فى تاريخ الإسلام والدعوة الإسلامية بعلمهم الغزير ، وفكرهم الرحيب . وقدوتهم الحسنة .

أما الفكر الأجنبى المعادى للإسلام والمسلمين ، فإن « وحيد الدين خان » قد قرأ كثيرا من هذا الفكر ،وهضمه هضما جيداً ، محاولا أن يرى الدوافع إلى بلورة هذا الفكر والتعرف على اتجاهاته ، ثم الخروج منه بنتيجة صادقة ، توضح أسسه ومقدماته . . ولعل أبرز الأمثلة على ذلك ما نراه فى كتابه « الدين فى مواجهة العلم » . لقد ناقش أفكار عديد من الكتاب والفلاسفة الأجانب المشهورين أمثال : برتراند رسل ، وكاريل ، وأينشتاين . وغيرهم واستطاع بمنهج إسلامى أن يدحض أفكارهم ونظرياتهم ؛ ويضع يده على نقاط الضعف فى تلك الأفكار وهذه النظريات .

— ٣ —

إنطلاقا من هذا المنهج يقدم « وحيد الدين خان » كتابه — حكمة الدين — ويركز أساسا على ما يمكن تسميته بمناقشة داخلية للمنهج الدعائى فى الإسلام ، أو أساليب الدعوة الإسلامية مبينا سماحة الدين ، وعطائه الثرى ، مسترسلا إلى التعمق والبحث عن جوهر الدين .

إنه يعنى بالدين هنا . . الإسلام . إذ لا دين سواه فى العالم بعد مبعث الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه **«إن الدين عند الله الإسلام»** (آل عمران : ١٩) .

وقد حاول أن يجيب على سؤال حيوى هام : ما هى العلاقة بين الجـــانب النفسى للدين والجـانب الخارجى ؟ يرى أنه بسبب الحقب الطويلة التى مرت بالمسلمين بين مد وجزر وحكم واستعباد قد وقعنا فى إفراط وتفريط فى نظرتنا تجاه الدين ، فبعض الناس يعطون الأهمية للجانب الروحى أو النفسى من الإسلام ، بينما البعض يميل إلى جانبه الخارجى . إن الميل إلى وجهة النظر الأولى يذهب بأصحابه إلى تصور دينى حيث لا يميز الإسلام شئ من الأديان الروحانية الأخرى . وعلى النقيض من ذلك تطرف البعض الآخر فأعدوا فى تفسيرهم للدين خارطة سياسية حتى يبدو للإنسان أن الإسلام نظام سياسى مثل سائر النظم السياسية الأخـــرى .

وفى هذه الحالة من الإفراط والتفريط فى تصور الجانبين الروحى والسياسى — من الإسلام يجب علينا أن نبحث عن التفسير الصحيح والمتزن للدين حتى لا نقع فى محظور هو تحريف الدين وحتى يحتفظ الإسلام بجوهره وأصالته « ص ٥ — المقدمة » .

والبحث عن تفسير صحيح للدين يجب أن يعتمد كل عناصر الدين لأن التركيز على عنصر بذاته هو تأكيد دعائى ، وتأكيد وقتى سوف يذهب ببقية العناصر جميعا ، ومن ثم فإن التفسير الخاطئ سيقود

حتما وبالضرورة إلى عمل خاطئ يضر بالإسلام أكثر مما يفيده ، وقد رأى « وحيد الدين خان » أن التركيز على عنصر معين « أمر لا بد منه ، لأنه لا يمكن خلق الحركة والنشاط الثورى بين الجماهير بدون استخدام ذلك الأسلوب . ولكن حين تتقمص قضية المعاش الهامة صورة الماركسية ، بسبب ذلك التأكيد ، وحين يخرج « حزب الخدام الإلهيين» من بطن الروح العسكرية فإن الأمر لا يكون أكثر من تفسير خاطئ لدافع حقيقى ، وعلى هذا الأساس نفسه نقرر بطلان ذلك التفسير . « ص ١٣ » .

ويرد وحيد الدين خان على من يرون فى الإسلام دينا وسياسة ، ووجوب الكفاح لإحياء جانب السياسة وإقامة الحكومة الإلهية ، فيرى أن البرنامج السياسى للمسلمين ليس قضية العقيدة فى حقيقته ، بل هو رهن الظروف والأحوال ، لأن السياسة — ليست لعبة من طرف واحد . بل هى لعبة مزدوجة ، ويجب ألا تنزل الجماعة إلى الساحة إلا حين تثق فى أنها أصبحت قادرة على معاملة الأطراف القوية ، أما النزول إلى الساحة قبل هذه المرحلة فهو مرادف للانتحار لا غير (١). وهو ما حدث مع تلك الأحزاب والحركات السياسية العزيزة

(١) أثارت هذه النقطة خلافات حادة داخل الحركة الإسلامية ، ويبدو أن هذا الخلاف لا محل له الآن بعد التطورات الأخيرة فى كل من إيران وأفغانستان.. فلكل بلد ظروفه التى ينبغى على الدعاة أن يفهموها ، ويتعاملوا بما يناسبها ويناسب دعوتهم .

علينا . لقد رأى رجالها أن الاكتفاء بشيء دون السياسة بمثابة خيانة لرسالتهم ولذلك قفزوا إلى نهر السياسة بدون تدريب كاف ، وبدون مراس ضرورى . فحقت عليهم سنة الطبيعة ، وأصبحوا ضحايا زوابع السياسة . . « ص ١٤ » .

إن الأستاذ وحيد الدين خان يرى فى الوجود الإنسانى أكبر مثال نموذجى لفهم الربط الجامع بين مختلف عناصر الدين . ودين الله جامع لعنصرين هما : الروح والجسد ، ولكن الجسد الذى لابد منه للوجود الإنسانى ، ليس بديلا للأصل المطلوب وهو الروح .

إن عقولنا ليست واضحة ، بالرغم من أن دين الله واضح تمام الوضوح ، فيمكن تقديم مئات من التفسيرات لدين الله ،وكل تفسير منها يكفى لضلال مئات الألوف من البشر ، وأساس هذا يكمن فى اختلاف النظرة أو الزاوية التى ينظر منها المشاهد أو المفسر . ولقد وقع كثير من المفسرين فى أخطاء لأنهم لم يهتموا إلا بنوع معين من الآيات أما الأجزاء الأخرى من كتاب الله فتظل جزءاً من إيمانهم ولكنها ، لا تكون أبداً جزءاً من عقولهم وبرامجهم ، فيغلب على تفسيرهم الطابع الذاتى أوالشخصى . وهنا يطرأ سؤال : كيف يهتدى الإنسان إلى حكمة الدين ؟ أو بمعنى آخر كيف يعرف أنه ظفر بالدين ؟

إن الشروط العملية التى يضعها الإسلام هى خير مقياس لتحديد ما إذا كنت مسلما أو من غير المسلمين . وأهم هذه الشروط كما يعرضها وحيد الدين :

(أ) يجب أن يلبسك إيمانك بلباس التقوى (يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يوارى سوءاتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير ، ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) . الأعراف : ٢٦ — ٢٧ .

(ب) أن الشهادة الأخرى على تمتعك بنعمة الله أن يصلك (رزق الله) وهذا هو الرزق الذى وجده نبى العصر لدى مريم عليها السلام ، فسألها (يا مريم أنى لك هذا ؟) فردت عليه قائلة (هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) آل عمران : ٣٧ .

وذلك لأن الله لم يجعل إنعامه مؤجلا بل جعله معجلا . وهو مقدمة للنعيم الأخروى ، وقبس من عطر الجنة يجده المؤمن فى قلبه ووجدانه «ويدخلهم الجنة عرفها لهم» محمد: ٦ (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا : هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً) البقرة : ٢٥ .

(ج) ألا تصاب حياتك بالجمود والتعطيل والانحطاط (الذين اهتدوا زادهم هدى) محمد : ١٧ .

— ٤ —

والمفهوم الحقيقى للعبادة هو الخضوع والتسليم التام لله تعالى : وهذا التسليم له درجتان : أولاهما أن تبدأ جوارح الإنسان وأعماله الخارجية تعيش حياة الطاعة الكاملة لله فى كل المجالات . وثانيتهما :

أن يسلم قلبه لله ، وينضم فى عالمه الداخلى إلى ملكوت الله ، ويمكن فهم هاتين الدرجتين للعبادة فى قوله تعالى : **(إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)** العنكبوت : ٤٥ . وفى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم (. . اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) ويمكن فهرسة مقتضيات الدين دنيويا فى العناوين الرئيسية التالية : القيام المعاشى « **أموالكم التى جعل الله لكم قياما** » (النساء : ٥) الحصول على القوة المرهبة (**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**) (الأنفال : ٦٠) ، التمكين فى الأرض (**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً**)النور : ٥٥ .

إن الهدف الحقيقى للمسلم فى دنياه لأجل الفوز فى أخراه هو المجاهده للحصول على الصلة القلبية والروحانية مع ربه ، وهو الشئ الذى . اصطلح له القرآن الكريم كلمات : الذكر والشكر والخشية والإنابة ، والإخبات ، والتضرع وغيرها . والذى وجد ربه فى دنياه سوف يجده فى أخراه والذى حرم من لقاء ربه فى دنياه سيظل محروما منه فى الآخرة . لابد إذن من السير قدما إلى الأمام وتكوين علاقة مباشرة مع الله (**يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم**

تتقون) البقرة : ٢١ ومقتضيات هذه العبادة كما يتصورها وحيد خان - أربعة :

(ا) الطاعة (الفردية والجماعية) : (**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً**) (الأحزاب : ٣٦) وتكون الطاعة الجماعية عندما يكون أهل الإيمان قد تمكنوا من إقامة نظام سياسى بينهم وأصبحوا قادرين على إدارة الشئون السياسية وتنفيذ الأحكام الاجتماعية بأنفسهم . . وقد كانت قائمة فى المجتمع الإسلامى فى يوم ما .

(ب) الشهادة : (**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**) (النساء : ١٦٥)

(ج) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على المستوى الفردى والاجتماعى أيضـــا . .

الدين النصيحة (**وتواصوا بالحق**) (العصر : ٣) .

(د) نصرة الدين : وتعنى إعلاء كلمة الله . يقول العز بن عبد السلام « قد أمرنا الله بالجهاد وفى نصرة دينه ، إلا أن سلاح العالم علمه ولسانه ، كما أن سلاح الملك سيفه وسنانه ، فكما لا يجوز للملوك إغماد سيوفهم عن الملحدين والمشركين ، لا يجوز للعلماء إغماد ألسنتهم عن الزائغين والمبتدعين » .

إن بداية عملنا هو التمسك بأصل الدين وهو ما فعله الأنبياء ، ثم تصل إلى بقية أجزاء الدين طبقا للأحوال ، كما فعل الأنبياء أيضا حين أتيحت لهم الظروف الملائمة .

— ٥ —

والحق أن نظرة « وحيد الدين خان » الموضوعية تفسح لنفسها مكانا عظيما داخل الفكر العاقل الذى يرى المصلحة بعين شاملة وواعية ، وليست جزئية وانفعالية : فقد خسر المسلمون كثيراً من الجهود حين واجهوا القوى الشرسة ، وهم فى حالة من الضعف والوهن لا تصمد أمام أتفه هزة من هزات السياسة وزوابعها .. وعلينا أن نعى جيداً أن الكثير من الجماعات التى تبددت فى داخل هذا الإطار ، كان يجب أن يظل أفرادها بيننا يمارسون حياتهم الإسلامية المنتجة مضيفين بها قوة إلى قوة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا . .

إن وحيد الدين خان داعية من الطراز المستنير حين ينظر إلى مصلحة الإسلام والمسلمين بالدرجة الأولى،وقبل ذلك يفهم الإسلام فهما عميقا وجيداً ، وليس سطحيا ورديئا ، وهكذا تكون الدعوة ،ويكون الدعاة حتى لو اختلفنا معه فى بعض القضايا . .

* * *

قضية خطيرة شغلت الدعاة

مأساة اسمها.. الرقص الشرقى !!

نشرت الصحف من وقت قصير خبرا مؤداه أن الحكومة قد منعت ما يسمى ، بالرقص الشرقى من تليفزيون جمهورية مصر العربية . والحق أن هذا الخبر – لو صح – يشكل فى حد ذاته علامة هامة على طريق مسيرتنا التربوية والاجتماعية فضلا عن المسيرة الروحية لشعوب ارتضت الإسلام بقيمه السمحة ومثله المضيئة . فقد ظل هذا اللون الذى انتسب إلى الفنون بالفرض والإكراه يمثل نوعا من التشويه فى معالم المجتمع الإسلامى وملامحه ، ولست أدرى من الذى وضعه هكذا بين فنوننا المختلفة وأطلق على من يقمن به لقب « الفنانات » ! وإذا أردنا أن ندقق النظر جيداً فى ماهية هذا الفن « المصطنع » وفيمن يقمن به لبدت لنا أشياء كثيرة تؤثر بالسلب دوما فى مسيرة المجتمع وحركته التاريخية .

فهو (أولا) يقلل من كرامة « المرأة » كإنسانة بصورة عامة ، وكمسلمة بصفة خاصة . فالمرأة عندما تمتهن هذا النوع من السلوك فإنها تعرض نفسها بضاعة مزجاة أمام عيون شرهة تتطلع للجسد الذى يتلوى عاريا ويؤدى حركات لا تعبر عن شئ اللهم إلا إثارة المتفرج وابتزاز غريزته وشحن باطنه للتحرك نحو الهاوية .

وبالنسبة للمرأة التى تنتمى إلى عقيدة المسلمين فهى مخالفة « مخالفة » صريحة لهذه العقيدة وخارجه على مبادئها ، ومتخلية عن قيم أصيلة جاء بها الإسلام تكريما للمرأة وإنقاذا لها من العبودية والاستغلال الجاهلى ، وفى الآية الكريمة من سورة الأحزاب يقول الحق تبارك وتعالى : (**يأيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين ، وكان الله غفورا رحيما**) (الآية ٥٩) وهو أمر إلهى ينطلق من الوضوح والبساطة ، والصراحة ، لاتخفى إلا على من أغلق قلبه وضل بالغباء والمكابرة .

ولا أظن منصفا يتجاهل مغزى أن تتحفظ المرأة وتحمى كرامتها من الامتهان ، والاستغلال. وهو (ثانيا) أى ما يسمى (الرقص الشرقى) يمثل نوعا من اللهو الرخيص الذى يستقطب إليه كل الشواذ والمنحرفين والمدمنين والذين يهربون من سطوة المجتمع بؤسا وهوانا فضلا عن البرآء والغريرين ، ويتحول فى الملاهى والكباريهات – خاصة – إلى نوع من البغاء العلنى ، وملفات الشرطة حافلة بكثير من المآسى والقضايا التى تحرر باستمرار حول هذا الموضوع .

ولا أشك فى أن علماء الاجتماع والإنسانيات ومعهم رجال البحث الآخرين يذكرون أبداً دور الراقصات أو من يسمون كذلك فى جرائم كثيرة وشنيعة بعثن على ارتكابها أوشاركن فيها . (ثالثا) يعطى هذا الرقص للآخرين وعلى مستوى العالم صورة غير حقيقية عن كفاح هذا الوطن ومسيرته ومقاومته للمحنة القائمة .

ويقال أحياناً إن هذا اللون من الرقص يدر على الوطن عملة صعبة مما يدفعه السائحون وينفقونه فى بلادنا على المتعة والنزهة ، بيد أننا لو تعمقنا وراء الحقيقة لرأينا أن ما يجلبه هذا الرقص يدخل إلى جيوب أصحاب الملاهى والساقطات ولا يدخل إلى جيب مصر الطيبة إلا ثمن التذكرة التى يدفعها السائح لطائرة مصرية تحمله من بلده وتعيده إليها .
ويقال مثلا إن السائح يحسب هذا الرقص معلما من معالم بلادنا ويأتى من أجله ، وهذا القول فضلا عن أنه إساءة لنا كمصريين مسلمين ويصورنا بصورة قوم منحلين كل همهم يتركز فى الجنس ؛ فإننا نقول بأن مصر القديمة حافلة بالآثار الشامخة ، ومصر الحديثة لها معالم طيبة تتمثل فى شمسها الرائعة وجوها اللطيف وأبنيتها الحديثة القائمة — وفوق ذلك فهناك الرجال الواقفون ليلا ونهارا يصارعون الهزيمة على ضفة القناة(١) وانتظارا للحظة المخاض الرهيب والميلاد العظيم ،وكل مايقال عن العملة الصعبة فإننا نرد عليه بعبارة بسيطة واضحة (أننا نستطيع أن نملك الكثير من العملات الصعبة بسهولة ولكننا لا نستطيع أن نملك مواطنا صالحا بسهولة) .

وهناك من الوقائع التاريخية ما يثبت بالدليل القاطع أن الإسلام والمجتمع الإسلامى قد انتصرا وحققا حضارة عظيمة دون رقص شرقى أو غربى ، وأنهما أعطيا الزمان شحنة فياضة من عبق حضارى خالد ينتشر على مر الأيام والسنين .

---

(١) واضح أن هذا الكلام كان قبيل عبور قواتنا المسلحة إلى الضفة الشرقية فى العاشر من رمضان ١٣٩٣ هـ .

وقد يقال أيضاً أن « الرقص الشرقى » نوع من « الترويح النفسى » عن النفس المصرية التى امتلأت هما ونكدا نتيجة معايشتها للواقع الراهن .. ونستطيع أن نقول بأن الواجب يحتم علينا أن نروح عن أنفسنا بطريقة راقية وبفن سام، وألا نروح عن ذاتنا بالاستغلال المحرم لمشاهدة أجسام عارية تتلوى ، والامتهان القذر لآدمية مخلوقة بشرية . وقد كان المسلمون يروحون عن أنفسهم إذا اغتموا أو اهتموا بالصلاة روحوا عن أنفسكم بالصلاة) . إننا نحتاج إلى اليقين ويجب أن نطلبه بالدرجة الأولى فى قيمنا ومثلنا الإسلامية ، وهناك الوان أخرى من الفنون الراقية والجميلة نستطيع أن نستمتع بها ونستشعر لذتها لأنها تصب فى اناء واحد هو اناء المعرفة والسمو الروحى .

لقد بلغ من الوقاحة أن تطلب إحداهن فى حلقة تليفزيونية انشاء معهد لتعليم الرقص الشرقى تتولاه الدولة وتشرف عليه ! ماذا نقول إزاء هذا الطلب؟ هل يمكن أن يحدث هذا فى مصر الطيبة ؟ هل يمكن أن تعطى مثل هذه الوقاحة اهتماما بينما الرجال الصابرون يقفون هنالك على جبهة تمتد بطول قناة السويس وبعرض مصر وطولها ينتظرون لحظة الخلاص والحياة ؟

ومهما يكن من شيء : فإن هذه المأساة التى تسمى بالرقص الشرقى ، جديرة بأن تجد رأياً عاماً يعضد الدعاة ويدعم موقفهم لتخليص الوطن من آثارها ومضاعفاتها ؛ فهى وباء ، وهى شر ، وهى محنة ، ويجب أن نحمى وطننا من كل محنة وكل شر وكل وباء ..

ثم لانملك إلا أن نقول بان المجتمع الإسلامى جدير بأن يهتم اهتماما كبيرا بقيمه النابعة من جوهر الدين لتكوين الإنسان الصالح ، والإنسان الطموح إلى تخطى اليأس والهزيمة والتخلف . . الإنسان التقى ذو الخلق ، ويكفى النبى العظيم « محمد » صلى الله عليه وسلم شرفا وفخرا أن خاطبه ربه سبحانه (**وإنك لعـــلى خلق عظيم**) (القلم : ٤) .

فى الإسلام وقضايا العصر
« مفاهيم وحقائق »

— ١ —

ليس من المصادفة أن نسمع أو نقرأ عن هجوم يشنه البعض على الإسلام ومبادئه من آونة لأخرى ، بدعوى التحرر والتحضر والتقدم وما إليها من الدعاوى، مخلصة الظاهر خبيثة الباطن، يغلفها الحقد فى كثير من الأحيان. وليس من المصادفة كذلك أن نجد من بين من يتشدقون بهذه الدعاوى بعض من أهلنا وذوينا يحسبهم الجاهل مسلمين حقاً وصدقا . .

ولو نظرنا بعمق إلى حقيقة ما يواجهه الإسلام وما يجرى ضده فى الخفاء ؛ لما استغربنا أن يواجهنا فى الآونة الاخيرة من يقول بأن الدين عقبة فى سبيل الثورة الفكرية والحضارية التى يجب أن تقوم بها أمتنا العربية[1] .

ولما استغربنا أيضا اقحام بعض القضايا العلمية والاجتماعية للتدليل على قصر النظرة الإسلامية فى معالجة هذه القضايا .. بينما الإسلام قد

---

(١) جاء ذلك فى دراسة الدكتور محمد النويهى فى عدد مايو ١٩٧٠ من مجلة « الآداب » البيروتية .

أوفاها حقها من التقنين والتشريع[1]، ووضع لها أحكاما فى صالح الفرد والمجتمع دون ظلم لواحد منهما . **« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة »**[2] .

ولعل كل هذه المحاولات غير المستغربة تهدف إلى شئ واحد شغل بال الكثيرين من الخبثاء وهو فصل الدين عن الدولة لتحقيق ما يسمى « بالعلمانية » وترويج ما يروقهم من مذاهب وعقائد لا تتفق مع الواقع المعاصر للشعوب العربية والإسلامية .

ومن ثم فإننا نستطيع أن نشم عبر هذه المحاولات رائحة حرب خفية غير معلنة يقودها البعض من وراء ستار ، ويدفع إليها آخرون حسنت نواياهم أحيانا وخبثت فى معظم الأحيان .

ونعتقد أن الحرب على الإسلام نتاج لمجموعة من العوامل والأسباب نشأت منذ فجر الإسلام وتأصلت فى أرض خبيثة وامتدت لتمكن شجيرتها من النمو والبقاء حتى عصرنا ومابعده من العصور فى محاولة فاشلة لاطفاء المشكاة الإلهية وإظلام العالم الإنسانى ، وإغراقه فى الرزايا والدنايا ، **(ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون)**[3] **(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون)**[4].

---

(١) مثل قضايا المرأة والميراث والقضاء وبعض العبادات . . وقد تناولتها الدراسة المذكورة فى الهامش السابق .

(٢) من الآية ٤٧ فى سورة الأنبيـاء .

(٣) من الآية ٣٢ فى سورة التوبة .

(٤) الآية ٨ من سورة الصف .

ونستطيع أن نشير هنا إلى أهم هذه الأسباب منذ نشأة الإسلام حتى يومنا.

أولا : الحقد اليهودى المتأصل فى نفوس اليهود منذ ظهر الإسلام كقوة تشجب الاستغلال وتسوى بين جميع البشر وتفاضل بينهم على أساس من تقوى الله وطاعته والإخلاص له . وقد رأى اليهود فيه خطرا حقيقيا على سلوكهم الاقتصادى والاجتماعى والفكرى ، وهو سلوك يكتسبون منه وبه القدرة على استغلال الآخرين والسيطرة عليهم ماديا وعقليا لخدمة مصالحهم الخاصة دون اعتبار لحقيقة الشريعة الموسوية الأصيلة .

ثانيا : التعصب الصليبى المتغلغل فى نفوس الأوربيين المسيحيين ، وهو تعصب أرضعته الكنيسة للإنسان الأوربى من خلال وصايتها عليه منذ مولده حتى وفاته . وقد وجدت الصليبية فى الإسلام خطراً عليها حيث يرفض هذه الوصاية البشرية على البشر ، ويعامل الإنسان على أساس المسئولية الكاملة والمباشرة أمام الله سبحانه ، ولم يحاول أن يجعل بينه وبين خالقه وساطة ، لأنه يملك الحق فى الاتصال المباشر بربه .

« وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ، أجيب دعوة الداعى إذا دعان »[1] .

وبذلك فان من حق الإنسان المسلم أن يتمتع بالاتصال المباشر بينه وبين ربه فلا تقيده اغلال البابوية ، ولا تقعده قيود الاعتراف أو الوساطة من الكنيسة أو غيرها . . وقد انطلق المتعصبون يساندهم رجال الدين الضالعون فى مساندة الاستبداد والحكام الظلمة إلى شن حروبهم الصليبية والاستعمارية ضد الإسلام والمسلمين ، أملا فى سحق الشعوب الإسلامية والقضاء على روح الإسلام وتصفية موقع الخطر

(١) من الآية ١٨٦ فى سورة البقرة .

عليهم ؛ وليتمكنوا من استغلال العالم اقتصاديا ويحققوا استراتيجية عسكرية تحمى هذا الاستغلال ، فضلا عن نشر دعاواهم وعقائدهم .

ثالثا : الشيوعية كحركة تمرد نشأت عن الكبت السياسى والإرهاب الدينى الذى مارسته الكنيسة فى مساندة القياصرة ضد الجماهير . . وقد قامت الشيوعية أساسا على رفض الدين والروح ، والإيمان بالمادة ، فكفرت بالكاثوليكية وغيرها من المذاهب الدينية ، كما اعتبرت الشيوعية الأديان « أفيونا للشعوب » تسبب لها التخلف وتخضعها للظلم والاستبداد[1] . ومن هذا المنطلق تهاجم الشيوعية الإسلام ، وتهاجمه بصفة خاصة لأنها تراه أكبر الأخطار عليها ، لأنه يحتويها ويفرغ مضمونها التدميرى والاستبدادى !

رابعا : الحركات الشعوبية التى لا تستطيع المجاهرة بعدائها للإسلام والمسلمين، بل تضرب من الخلف وبذكاء شديد متذرعة بأسباب مقبولة شكلا ويرفضها المتأمل الفاحص جوهرا ومضمونا وقد ركبت هذه الحركات بعض الموجات الصاعدة فى المجتمع الإسلامى واستفادت منها فى تحقيق أهدافها ومراميها . .

والشعوبية لاتستطيع المجاهرة بما تخفى، بل تسير فى الظلام وتضرب دون أن يراها أحد يشهد عليها ويدينها ، فأصبحت بذلك من أخطر الاخطار على الإسلام والمسلمين وأشد ضراوة من العدو المجاهر ،لأنه يصعب معرفتها

---

(١) يمكن مراجعة ما كتبه الأستاذ العقاد فى كتابه « الشيوعية والإنسانية فى شريعة الإسلام » عن الشيوعية وموقفها من الإسلام .

ومحاربتها ، هذا إن لم تكتسب عطف البعض وحنانه عندما يرى سيماء الذل والمسكنة تغلف مظهرها الخبيث .

وقد حذرنا جل شأنه من هؤلاء، وأسماهم بالمنافقين ووعدهم بأشد العقاب . **(مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)**[1] . **(إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا)**[2] . ولقد رأينا بعض هؤلاء فى عصرنا الحديث يضربون على وتر حساس له صلة بالقرآن الكريم ؛ كتاب الأمة الإسلامية .. عندما حاولوا القضاء على اللغة العربية وإذابتها فى اللهجات الدارجة وذلك لإماتة الإحساس الدينى لدى المسلمين ، وإنتزاع الروح الإسلامية من وجدانهم ، وإفراغ المحتوى الإنسانى من قلوبهم ولزرع الأفكار المسمومة والأغراض الخبيثة فى نفوسهم[3] .

خامسا : يدخل الحرب الخفية ضد الإسلام بسلامة النية وحسن الطوية وسطحية النظرة بعض المسلمين الذين انبهروا ببريق الحضارة الأوربية والحركات الثورية فى الغرب . فقد اعتقدوا أن الحضارة

---

(١) الآية ١٤٣ من سورة النساء .

(٢) الآية ١٤٥ من سورة النساء .

(٣) بدأت هذه المحاولات بما قاله السير « ويليام ولكوكس » الإنجليزى فى أواخر القرن الماضى فقد أوحى بأن اللغة العربية سر تأخر المصريين وأن السبيل لتقدمهم هو استخدام اللهجة المصرية الدارجة فى التعليم والكتابة وذلك للحاق بركب الحضارة ، وقد شايعه فى ذلك بعض الشعوبيين المصريين ، ويمكن مراجعة ذلك فى الجزء الأول من كتاب الأستاذ « عمر الدسوقى » (فى الأدب الحديث) .

الأوربية وثورات شعوبها المتطرفة أمثل النماذج للحياة الإنسانية ، رافضين كل الرفض القيم الإنسانية فى الإسلام، وبناءه الإنسانى . فلم ينظروا بعين العقل والروية إلى ما فى الحضارة من زيف وصدق ولم ينظروا إلى ما فى الإسلام من قيم وبدع . . . فتشيعوا للحضارة والتطرف دون نظرة علمية منطقية . . وهؤلاء – فى رأينا – أخطر على الإسلام والمسلمين من كل الاعداء السابقين واللاحقين . فهم يخاطبون أهليهم وذويهم بلغة مشتركة تتيح لهم أن يلمسوا مواضع القوة والضعف ، والثبات والاهتزاز ، وهم يستطيعون أن يضربوا على الأوتار الحساسة التى تتأثر بأقل اللمسات من كلمة أو فكرة تصدر عنهم .

وليس لى أن أسترسل فى أسباب الحرب على الإسلام أكثر من ذلك ، لأنها كثيرة ومتعددة ، ولا نستطيع فى هذه العجالة الموجزة أن نستقصى كل عوامل ومسببات الحرب والمواجهة مع الإسلام لدى الحاقدين والشانئين ، ويكفينا أن نعلم أن هذه الحرب تنطلق من مواقع كثيرة ، وتتطاير سهامها إلى مواطن كثيرة فى عالم المسلمين . والذى يعنينا الآن هو مناقشة بعض المفاهيم التى تطرح عن الإسلام ، والتى تطمح إلى تمييع الشخصية الإسلامية وإذابتها فى محيط من الأفكار والعقائد الهزيلة والتدميرية التى لايستفيد منها الإنسان كفرد ولا البشر كمجموع .

— ٢ —

ـ هل الإسلام عقبة فى سبيل حضارتنا ومستقبلنا ؟

ـ وهل نحتاج حقاً إلى ثورة فى الفكر الدينى ؟ . .

سؤالان . . والإجابة عليهما واجب لازم لأنهما يلحان بعنف فى أيامنا ، وينتظر الكثيرون ممن يدورون على حافة الغربة الروحية والحيرة العقائدية ؛ إجابة شافية تعطيهم القدرة على الحكم والتصرف فى أمر يمس حياتهم ويتعايش معهم من الشهقة الأولى فى الوجود حتى آخر نفس فيه .

وأحسب أن الإجابة على السؤال الأول تقول : لا .

والإجابة على السؤال الثانى بعد تحفظ تقول : نعم .

ونخطو خطوة فى بسط إجابتنا عن السؤال الأول بلا . . ثم الخطوة الثانية للإجابة عن السؤال الثانى . يقال : « إذا كنا جادين فى سعينا نحو ثورة ثقافية عربية شاملة (وجب) علينا أن نبدأ بمواجهة هذه الحقيقة : أن العقبة الأولى فى هذا السبيل هى العقبة الدينية ، وأننا لن نصل إذن إلى الثورة المنشودة إلا إذا ذللنا هذه العقبة وأزحناها عن طريقنا[1] .

لمـــــاذا ؟

لأن « الناس فى أقطارنا العربية لا يزال الاعتبار الدينى يغلب على كل اعتبار عندهم »[1] .

---

(١) دراسة النويهى فى الآداب (مايو ١٩٧٠) .

والحقيقة – أن جوهر الإسلام ، إنسانى الغاية والهدف ، واقعى الوسيلة والحركة كل غايته أن يرقى الإنسان وأن يسمو به ، ويعطيه حقه من التكريم والتبجيل ، ويحفظ عليه كرامته وحياته **(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا)**[1].

والإسلام لا يرضى بما يحط من كرامة الإنسان أو يقلل من قيمته أو يهدر إنسانيته ؛ ومن ثم فإن تطور الإنسان ورقيه ، وتسخيره للطبيعة بما يكفل له الراحة بعد العناء والسهولة بعد العسر ، والأمن بعد الخوف ؛ من الواجبات التى يفرضها الإسلام على المسلم طالما كان ذلك فى إمكانه وداخل إطار قدرته البشرية .

ولقد أوضح الإسلام الطريق إلى بناء الحضارة وذلك بدعوته إلى المعرفة ، والمعرفة بالضرورة تقود إلى الكشف والاطلاع على الجديد .. وكان أول ما نزل من القرآن داعيا إلى المعرفة والبحث . ولنتأمل قول الحق سبحانه وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم)[2] .

---

(١) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٢) الآيات من أول سورة العلق .

وهذه الدعوة الإلهية إلى القراءة أو المعرفة أو البحث ، دعوة يتميز بها الإسلام دون سواه ، حيث جاءت هذه الدعوة دون وساطة أو كهانة ، وتركت الإنسان المسلم حراً فى بحثه وتحصيل معرفته ليستكشف من آيات ربه ، وليعلم من المجهول ما لم يعلمه من قبل « علم الإنسان ما لم يعلم » .

ولم يقف الإسلام بالإنسان المسلم عند حدود معينة يتجمد ازاءها ، أولينظر إلى الاحداث من بعيد ، وكأنها لاتعنيه أو لا تخصه ، كذلك فإنه لم يدعه وشأنه من ناحية واجبه إزاء نفسه بل جاء الإسلام لينطلق بالإنسان إلى آفاق أرحب وأوسع ، تضم ذاته والعالم المحيط به ظاهرا وباطنا ، روحا ومادة ، حقيقة ومجازا . . يقول تبارك وتعالى :

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ، ماخلق الله السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق وأجل مسمى)[1] .

إنها دعوة إلى الفكر والتفكير ؛ ترفض الانغلاق ، وترفض الجمود ودعاوى التجهيل والتراجع إن أساس الحضارة هوالفكر والتفكير ، والإسلام بدعوته إلى التفكير والمعرفة والبحث لا يعد عقبة فى سبيل بناء الحضارة العربية الإسلامية المعاصرة .

وأكثر من ذلك نجد تلك المقارنة الموحية والبالغة الدلالة **(قل هل يستوى الأعمى والبصير)**[2] .

---

(١) الآية ٨ من سورة الروم .
(٢) من الآية ٥٠ فى سورة الأنعام .

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ، إنما يتذكر أولوا الألباب)[1].

وقال تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء)[2].

وقال : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[3].

وقال : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير)[4].

إن حضارة العصر الحديث تعتمد العقل والمنطق ، والبحث والتجربة ، وما نحسب الإسلام قصر فى هذه ولادعا إلى تركها أوالجمود دونها ، بل إنه فى معظم مواقفه دعا إلى العقل والمنطق وتحكيمهما فيما يعترض المسلمين من الأحداث سواء كانت متعلقة بأمور دينهم أو أمور دنياهم عندما لايجد المسلمون نصاً أو إجماعاً ، ودعا إلى البحث والتجربة والاجتهاد ، وقصة معاذ بن جبل حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة لمعظم الذين يتابعون البحث الدينى ، فقد سأله بم يقضى ؟ أجابه : بكتاب الله . فسأله إن لم يجد فى كتاب الله فقال : بسنة نبيه ، إن لم يجد فى سنة النبى ، فأجابه بالاجتهاد فأقره النبى على ذلك . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » وكما هو مشهور فى مسألة

---

(١) الآية ١٩ من سورة الرعد .

(٢) من الآية ٢٨ من سورة فاطر .

(٣) من الآية ٩ فى سورة الزمر .

(٤) من الآية ١١ فى سورة المجادلة .

تأبير النحل فقد أقر أصحابه على آرائهم ونزل عليها ، وقبل فى معنى ما يروى عنه صلى الله عليه وسلم : « ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن » وقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تجتمع أمتى على ضلالة » .

كل ذلك يؤكد أن الإسلام لا يقف عقبة فى سبيل التطور أو الحضارة . . وليعلم الذين يعتقدون أن الدين عقبة فى سبيل تقدمنا أن الإسلام جاء أمة من البدو الرعاة — التجار أحيانا — فصنع منهم خلال قرن من الزمن أمة ذات حضارة تطورت ونمت وكبرت واتسعت اطرافها بعد خمسة قرون من بدء دعوته . ولقد وصلت الحضارة إلى ذروتها فى عهد العباسيين : علما وفكرا ومرافق حياة ، فى الوقت الذى كانت فيه دول الغرب ذات الحضارة المعاصرة تحيا فى ظلام دامس يفرضه الطاغوت الحاكم مع الكهنوت المتسلط والذى ينبعث من الكنيسة قهرا وإرهابا وقيودا واغلالا ! .

ويتضح من ثم ، أن جوهر الإسلام تقدمى النزعة ، ديناميكى بالطبيعة ، داعية حضارة ورقى وتسام بالضرورة ، ولم يكن عقبة فى سبيل التقدم والتطور والحضارة كما يدعى بعض السطحيين من بنى الوطن ، وقد يقال مثلا : إن الإسلام كان كذلك — تقدميا وديناميكيا وداعية حضارة — فى بدء الدعوة ، وذلك للظروف التى وجد فيها آنئذ حيث كان يتناسب معها ويصلح لها ، وحين انتهت هذه الظروف تدهورت حالة العرب ، وحط عليهم التأخر ولازمهم من يومها حتى قرننا العشرين . وهذا القول فيه مغالطة كبيرة ، لأن الدين الإسلامى فى جوهره الاصيل يعانق الإنسان أبداً حيثما كان وكيفما كان ، ويسير

معه من زمن إلى زمن ، ويسموبه ويرقى طالمـا تمسك بهذا الجوهر الأصيل ، ونفذه باخلاص وعقيدة وتفان ، والناظر فى أسباب الانحاط يجدها أبعد ما تكون عن الإسلام وروحه النقى . لقد وحد الإسلام دولة العرب التى اتسعت وشملت كثيرا من الأجزاء غير العربية ، وصار الجميع واحدا تحت راية واحدة ، وأقام دولة الحضارة المزدهرة ، ولكن حين سيطرت النزعات والعصبيات والأغراض والشهوات لدى الحكام والمحكومين ، تمزقت الدولة وانفض سامرها ، ولم يبق من كل بريقها الوهاج إلا أطلالا تنعى من فاتوها وخرابا بلقعا ، دون ذنب جتنه ، أو جريمة اجترحتها .

إذاً لم يكن الذنب ذنب الإسلام ، ولم يكن هو سبب التأخر والانحطاط، وها هو جوهره الأصيل الباقى يفحم كل من يقول بأنه السبب فى التأخر والانحطاط !

(٣)

ودليل آخر من بعيد ، حى متحرك أمام أعيننا ذلك هو ما يجرى فى دولة « الباكستان » لقد أنشئت هذه الدولة حديثا واعتمدت الإسلام للدين والدولة ، وها هى تقفز بخطى حثيثة على درب الحضارة والتقدم دون أن يجرؤ أحد بالقول إن الإسلام هو العقبة فى سبيل تقدمها . . بل إن الجميع هناك يقولون ، والكثيرون من المبصرين واصحاب

البصيرة هنا يؤكدون ؛ أن الإسلام كان هو الحافز والباعث والدافع إلى بناء دولة الباكستان الحديثة حضاريا وإنسانيا[1].

ومن العجيب أن يقال أن كل من يعارضون الآراء الجديدة والمذاهب الجديدة ، يفعلون ذلك باسم الدين ، وينطلقون من موقفهم المحافظ الجامد[2]، والذى أعرفه أن الدين قد وضع تشريعا للعلاقات الاجتماعية ، وهذا التشريع صواب فى خطوطه العريضة هذا الزمان وفى غيره من الأزمنة ، وحين يأتى واحد يمسح خطا من هذه الخطوط التى اتفق عليها الكتاب والسنة والإجماع ، فإن من الواجب المعارضة ، والمعارضة أمر لازم فى حينه، لأن هذا المسح ليس تجديدا ولا تقدما ولا حضارة ، ولأن الدين وضع هذا التشريع بما يتفق مع العقل والمنطق ولا يتعارض مع أيهما . ولقد يطلع علينا البعض — بالسطحية والسذاجة — ليطالبوا ببعض الأمور التى لا نستطيع إزاءها إلا الرثاء لأصحابها ، لأنهم يتكلمون عن جهل ، ويصدرون عن عدم دراية ، والأولى لهم أن يخوضوا فيما يعرفون — فيكونوا بذلك قد احترموا العصر ، والحضارة ، والتقدم ، واحترموا أنفسهم قبل كل شئ .

---

(١) كتبنا هذا الكلام قبل المأساة التى حلت بشعب الباكستان الشقيق نتيجة للإرهاب الطاغوتى والديكتاتورية العسكرية التى أزاحت أصحاب الرأى والفكر من علماء الإسلام وأعطت الفرصة لأعداء الإسلام فى الداخل والخارج أن يقسموا البلد الواحد إلى نصفين وأن يزرعوا الكراهية بينهما ونأمل أن يتجاوز المسلمون فى باكستان هذه المحنة خاصة بعد التطورات الأخيرة وأعلان تطبيق الشريعة الاسلامية عمليا فى الثامن عشر من ربيع الثانى ١٣٩٩ هـ

(٢) راجع دراسة النويهى فى الآداب (مايو ١٩٧٠) .

ونسأل أنفسنا : ما هى هذه الآراء الجديدة ؟ وماذا تعنيه هذه المذاهب الجديدة ؟ أهى آراء بديلة لآراء الفكر الإسلامى فنسقطه من الحساب ونتخلى عنه ، أم أنها مذاهب جديدة تحمل معتقدات جديدة فنؤمن بها ونترك معتقداتنا الإسلامية !

إن هذه الدعاوى إن لم يصاحبها العقل والمنطق ، وتقبل العقل والمنطق فى الحوار والمناقشة ، تصبح عبئا على التقدم والتطور وبناء الحضارة الجديدة التى نرجوها .

ولقد أغفل هؤلاء المتحاملون على الإسلام أن الإسلام يختلف عن غيره من الأديان ، فهو مباح لمن يملك القدرة على الفهم والتمييز ، ونصوصه التشريعية ،والتى أهمها القرآن الكريم ، وهو تحت يد من يريد أن يبحث جاداً ومخلصا . وقد نظلم الإسلام حين نظن أن القرآن يحتوى على تفصيلات تتوافق مع ما تقدمه التكنولوجيا الحديثة من مصطلحات ، والحضارة المعاصرة من عناصر ، فالقرآن وضع أسسا عريضة للعلاقات الإنسانية العامة بين الفرد وذاته ، وبين الفرد ومجتمعه ، وبين الإنسان وخالقه ،وأوضح هذه العلاقات وأوفاها حقها من التوضيح والتعريف؛ لأنها علاقات ثابتة بمرور الزمان وبقاء الإنسان . وفى ظنى أن أصحابنا المتحاملين على الإسلام يفهمون عكس ما نقول ، وهو سر لكثير من أخطائهم ومثالبهم .

ولعلهم يريدون أن يكون الإسلام نظرية علمية تتوافق مع مايستجد من نظريات العلم والحضارة ، فيفسر لهم المعادلات التى يصعد بها

الصاروخ إلى القمر ، أو تدور بها مركبة الفضاء حول الأرض ، فذلك منهج من يحمل الأمور فوق طاقتها ، ولا يعطيها حقها فى حدود الواجب والممكن .

ولقد وضع الإسلام أسس الانطلاق نحو تحقيق الغايات الإنسانية ، والتى من بينها بناء الحضارة التى تريحه وتسعده ، ولم يضع نظريات علمية ، يختلف معها المنظرون غدا أو بعد غد . . لقد فتح الطريق للإنسان وأعطاه إشارة المرور لكى يمضى ، ورسم له عدة قواعد يجب مراعاتها فيما بينه وبين خالقه ، وبين ذاته ، وبين مجتمعه ، وعليه أن يرى حصاد سيره سلبا أو إيجابا . قال تعالى : (**يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان**)[1] . وقال أيضا : (**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**)[2] .

ولم يقف الإسلام من أى اكتشاف علمى ، أو تقدم حضارى موقفا معاديا ، والتاريخ يذكر له ذلك . هذا على العكس من غيره من الأديان . . لقد وقفت الكنيسة فى عصورها الوسطى مواقف مخزية من الاكتشافات الحديثة والنظريات الاجتماعية ، وموقفها من الذين اكتشفوا الجاذبية الأرضية ودوران الأرض ، وبالتحديد موقفها من « جاليليو » معروف .

---

(١) الآية ٢٤ من سورة الرحمن .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة التوبة .

إن التاريخ لم يسجل على الإسلام شيئا من هذا لقد شجع العلوم والفنون والآداب وأعطى الحرية للبحث العلمى ، والإبداع الفنى ، ولم يوصد الأبواب فى وجه العلماء والفنانين[1] . بل أعطاهم من الحرية ما يذكره التاريخ بعين الانصاف والتقدير فى وقت كان فيه الحصار مضروبا على كل حركة علمية أو فنية تغير من الواقع الاوربى المظلم إبان القرون الوسطى !

ولا أظننى أبعد عن الحقيقة إذا قلت إن الإحساس الدينى حين يشيع فى نفوس المسلمين ، يكون مختلفا تماما عن أى احساس دينى غير إسلامى . . لأن المسألة تختلف من جوهر دين إلى جوهر دين آخر . . فإذا كان الدين لدى الشعوب غير المسلمة قد نومها تنويما مغناطيسيا ، وأسلمها إلى الجمود والتخلف — كما حدث مع الشعوب المسيحية الأوربية فى القرون الوسطى — أو أسلمها إلى حالة من الاستسلام للغزو الخارجى والاستعمار العالمى — كما حدث لشعوب الصين والهند الصينية ، فإن الإسلام لم يفعل ذلك بالمسلمين ولم يدفعهم إلى الاستسلام أو التنويم . . بل واصلوا رحلتهم الحياتية على أساس من البعث الدينى فى فترات التاريخ الإسلامى المختلفة وراحوا يقودون القتال ضد الاستعمار وضد الغزو الخارجى . . ويشهد التاريخ للمسلمين فى

---

(١) نعنى بالفنان هنا : المعنى الأصيل لكلمة فنان ، وليس المعنى المبتذل الذى يتداول فى سوق الكتابة الرخيصة — إن الفنان هو الإنسان المبدع بالكلمة أو الريشة سواء كان شاعرا أو قصاصا أو كاتبا مسرحيا . . . . الخ .

إندونيسيا وإيران والهند وأفغانستان وإفريقيا بأن المسلمين هم الذين أشعلوا شرارة الكفاح الأولى ضد الاستعمار ، وأنهم ضحوا كثيرا فى سبيل الاستقلال الوطنى والدفاع عن الكيان الذاتى لهم ، ولم يكن الدين الإسلامى بالنسبة لهم أفيونا كما حدث لأصحاب الديانات الأخرى[1].

ومن العجيب أن يقال أنه مادام الاعتبار الدينى عند العرب يغلب كل اعتبار فلا تقدم حضاريا[2] . ولست أدرى سببا يجعل الاعتبار الدينى عائقا للتقدم الحضارى والتكنولوجى لأمتنا العربية ، فالدين الإسلامى – كما أوضحنا – ليس عقبة فى سبيل التقدم ، فمن أين يكون لغلبة الاعتبار الدينى القدرة على الإعاقة ؟ إننا نرى أن الاعتبار الدينى يبعث على التقدم الحضارى وليس العكس ، ويستطيع أى من الرواد الاجتماعيين الذين يخدمون المجتمع أن ينادى لإقامة مشروع يهدف إلى إسعاد المسلمين ولينتظر النتيجة ! . . وفى ظننا أن النتيجة لن تكون سلبية أبداً مادام الهدف واضحا والتوجيه سليما ، وأعود مرة أخرى إلى الباكستان كنموذج للدولة التى يغلب على أفرادها الاعتبار الدينى ، هل تتراجع الباكستان لهذا السبب

---

(١) راجع كتاب الأستاذ « أنور الجندى » – « العالم الإسلامى ، والاستعمار السياسى والاجتماعى والثقافى » القسم الأول الفصول ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ . فقد أثبت دور المسلمين وقيادتهم للمقاومة ضد المستعمرين والغزاة على العكس مما روجه الاستعمار وأبواقه لبعض الطوائف التى تسلقت موجات الكفاح واختطفت زمام القيادة من المسلمين ، وأثبت أيضا أصالة المسلمين فى عمليات الكفاح والمقاومة .

(٢) دراسة النويهى السابقة .

عن ركب الحضارة ، أم أنها تسير بخطى حثيثة ؟ الإجابة فى رأيى ، وكما ، فهمتها من تطور الاحداث على المستوى العالمى — تقول : أن الباكستان تسير بخطى حثيثة فى ركب الحضارة بسبب الاعتبار الدينى قبل أى شئ آخـــر .

وقد يقال أن الكثرة من المسلمين فى مصر والعالم العربى تعتنق من الدين الإسلامى اسمه فقط ، وأن الروح الدينى لايسرى إلى الاعماق ، ومن ثم ينشأ قصور كبير لدى هذه الكثرة فى فهم الدين والحضارة ، لأنها كثرة أمية ، وهذه الكثرة عقبة لأنها تفهم الدين بطريقة خاطئة ، ويسيطر عليها اعتبار دينى خاطئ أيضا . وهذا القول فيه بعض الصحة ، ولكنه ليس صحيحا تماما ، لان الأميين فى القراءة والكتابة والسياسة يستمعون إلى خطبة الجمعة والدرس الدينى واليومى ، ومعظمهم اليوم لديه من أجهزة الإذاعة ما يسهل له تلقى المادة الدينية فى يسر . وبالإضافة إلى هذا فإن معظم المسلمين اليوم يؤمون المصانع والمؤسسات والمزارع وكل مرافق التطور الحضارى والبشرى دون أن يمنعهم الاعتبار الدينى أو الأمية من الوقوف بالجمود كما يدعى البعض ، وهنا فى مصر عدد هائل من الشباب المسلم الذى يرد مراكز البحث والدرس فى أدق البحوث العلمية والتكنولوجية ، عدا زملاء لهم فى خارج الوطن يدرسون فى جامعات العـــالم ، ويحققون نتائج باهرة فى هذه المجالات الحضارية والإنسانية . .

إن الادعاء بأن الدين عقبة فى سبيل مايسمى بالثورة الثقافية العربية ادعاء باطل ولاأساس له .. لأن الدين الإسلامى لم يقف بالإرهاب

:لاضطهاد وصكوك الغفران فى وجه البحث والمعرفة ، بل قامت دعوة الإسلام أول ما قامت على الدعوة إلى المعرفة والبحث . . وبالرغم من كون الإسلام جامعا وشاملا لقضايا الإنسان والإنسانية ، فإنه فتح الباب على مصراعيه أمام التجارب الأخرى للبحث والاحتكاك والإفادة .. والتاريخ يذكر كيف تفاعل المسلمون مع الفلسفات الإغريقية ، الفارسية والهندية وكيف صهروا عناصرها الصالحة والمتفقة مع جوهر ما جاءت به الدعوة الإسلامية فى وضوح وصراحة وبساطة .

يبقى هنالك جزء من الاجابة على السؤال الأول : « هل الدين عقبة فى سبيل تطورنا الحضـــارى ؟ » .

— ٤ —

إن المتحاملين على الإسلام ينظرون إليه نظرة أنانية تنبع من خلال مصالحهم الشخصية ومستقبلهم الفردى . انهم يذكروننا على أية حال بأولئك النفر من قريش اللذين حاربوا الإسلام فى أول عهده معتقدين أنه سب آلهتهم ويشتم أصنامهم وبسفه أحلامهم الوردية فى التسلط والزعامة والديكتاتورية والطاغوت . وحين سئلوا عن سر تمسكهم بتلك المظاهر التافهة والنظم العفنة قالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة

وإنا على آثارهم مقتدون)[1] . وحينما يسألون عن سر التمسك بشئ لا يفيد فى حين أن ما جاء به محمد أكثر فائدة واتزانا مع الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية كانت إجابتهم نوعا من المكابرة والحمق الممقوت (**قال أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم ؟ قالوا : إنا بما أرسلتم به كافرون)**[2]

وقد نعثر على نماذج أكثر سخفا وتفاهة وسطحية حين يسألون عن سر اعتمادهم على الأصنام والأوثان ، وهى من حجر وخشب لا يسمع ولايبصر، أوأولياء من لحم ودم لا يملكون لأنفسهم خيرا ولا نفعـــا ، فيقولون (**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)**[3] . أما النماذج المعاصرة فهى لا تقل عنهم لهوا وسخفا وتفاهة وسطحية بحال من الأحوال ،وإن تمسحوا فى العلم والايديولوجيات والنظريات الفلسفية والتربوية الناقصة . . وإن السمة المميزة لهؤلاء المعارضين للفكرة الإسلامية فى بلاد الإسلام، أنهم تشبعوا بأفكار غريبة عن البيئة التى ولدوا ونشأوا فيها ، وهم متعصبون لدرجة الحمق،وسرعان مانجدهم يقعون فى انفصام غريب بين ذواتهم وبين مجتمعاتهم . . ولا تعليل لهذه الفصامية فى رأيى سوى سيادة الروح الانانية وانغماس أصحابها فى نرجسية لا تهتم بأحد ، ولا تعبأ بما يقال خارج إطارها الفكرى ،

---

(١) الزخـــرف : الآية ٢٣ .
(٢) الزخـــرف : الآية ٢٤ .
(٣) الزمر : الآية ٣ .

وإذا تصادمت خارج هذا الإطار مع أفكار أخرى كانت محنتها الكبرى فى المكابرة والإصرار الأعمى على ماوعته ذاكرتها من فكر متخلف وسلوك قاصر .

إن الإسلام لم يفرض ذاته على أحد ، **(لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم)**[1] وانطلاقا من هذه المقولة أتاح الإسلام للعقل البشرى داخل الإنسان أن يؤدى واجبه على الوجه الأكمل فى حمل الأمانة ومواصلة الطريق نحو الرقى والتطور الحضارى الذى يسعد الإنسان ويدعم الجماعة البشرية، ويعطيها الأمل فى سلم دائم . لا تعكره الشهوات التدميرية ولا الرغبات الشيطانية الجامحة .

وكانت النظرة الإسلامية للعقل فى قمة التحضر والتمدين، حين طلبت منه أكثر من أن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ، ويفكر ، ويتأمل ، ويأخذ العظة والعبرة ، ويحاول لو استطاع أن يخترق أجواز الفضاء وينفذ من اقطار السموات والأرض . **(يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان)**[2] وقبل ذلك طلب منه أن يحترم ذاته ، ويمارس دوره فى فهم ما يجرى حوله **(إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا**

---

(١) البقـرة : ٢٥٦ .

(٢) الرحمن : الآية ٢٤ .

وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)[1] .

من ثم نرى الإسلام لم يضع أى عقبة من العقبات فى سبيل التطور الحضارى والرقى المادى . . إنه دعا إلى ذلك بكل حرارة وقوة على أساس من اليقين الذى يصل إلى الإيمان الكامل الذى لا تشوبه شائبة ولا شك من الشكوك . . ولكن الناظر إلى واقعنا التعس وتخلفنا المادى عن ركب التكنولوجيا المعاصرة يجب أن يرجع به إلى تخلف روحى ، وشعب أهمل العقيدة ، وانداح مع التيارات الفوضوية والكسولة بفعل عوامل مختلفة نشأ عنها تخلف فى كل الميادين ، وان كان الواقع يقول إننا الأمة الوحيدة التى ينعقد عليها الأمل فى إنقاذ العالم من الوثنية الغربية والماركسية الشرقية والشوفينية اليهودية وغيرها من العقائد الهدامة .

إن الدين الإسلامى لم يكن بحال من الأحوال عقبة فى سبيل تطورنا الحضارى حين شرع الطلاق وأباح تعدد الزوجات وقسم المواريث بالقسطاس بين المستحقين . . إن مشروعية الطلاق كانت جانبا مضيئا من جوانب هذا الدين ، رغم أنه أعلن سلفا أن الطلاق أبغض الحلال إلى الله . . ولن نستطرد طويلا فى بيان ذلك ، إذ أن الأحداث المعاصرة بوقعها الهائل قد أثبتت أن الإسلام كان على صواب حين شرع الطلاق ، ولم يحرمه كما فعلت بعض الأديان الأخرى التى تفرض أن يعيش رجل مع أنثى أبد الدهر حتى ولو لم يتوافقا مزاجا وروحا

---

(١) آل عمران : الآيتان ١٩٠ ، ١٩١ .

وطبيعة ! إن هذه المحنة « تحريم الطلاق » قد أدت إلى كثير من العنت والتمزق فى الأسر الأوربية التى تدين بالكاثولوكية . تصور مثلا : اثنان يعيشان فى غرفة واحدة لاتتلاقى نظراتهما ولا جسداهما ولا قلباهما ؟ لابد إذاً أن يفكر كل منهما فى رفيق آخر « غير مشروع » يقضى معه بعض عمره الباقى مهما كان ذلك عبئا على ضميره وإيمانه ، لأنه مقيد ومربوط بحكم قاس لا مبرر له . وهذا تصرف مناف للفطرة البشرية السوية .

ولننظر إلى ما حدث فى إيطاليا يوم صوت الشعب الإيطالى على قانون إباحة الطلاق ضد رغبة المتزمتين والمتخلفين عن الفطرة الإنسانية ، وهو القانون الذى هز كل مسلمات الغرب كتبت مجلة « نيوزويك الامريكية » تصف ابتهاج شباب إيطاليا بانتظار الطلاق « لقد أذهلت نتيجة الاستفتاء السياسين كما أطلقت موجة من الابتهاج فعلى درجات السلم الأسبانى فى روما كان الشباب المبتهجون يوقفون السائحين ويقولون بفرح :

– إننا نستطيع أن نطلق مثلكم .

ولقد بلغ التأثر بالأديب الإيطالى « البرتو مورافيا » حداً دفعه أن يعبر عن نتيجة الاستفتاء قائلا :

– « انه نصر لكل شىء حر وسعيد وصحى وعقلى ، ضد كل شىء جبان ومريض ومجنون وغامض »[1] .

---

(١) نقلا عن الاعتصام – القاهرة – عدد رمضان ١٣٩٤ هـ .

إن بعض الذين عاشوا على فتات الثقافة الغربية يصيحون فى مصر والعالم الإسلامى بأن الطلاق شرعة رجعية ومتخلفة ولا تتوافق مع إيقاع العصر ، ولا تنسجم مع عجلة التطور ، فضلا عن وقوفها عقبة فى سبيل تحضرنا ! وإذا كانت إيطاليـــا قلعة الكاثولوكية فى القرن العشرين قد هزمت أمام زحف الفطرة الإنسانية ، وأقرت مشروع الطلاق وأباحته . . أما أولى بنا – ونحن أصحاب الدين الذى توافق مع الفطرة منذ نشوئه – أن نتأمل قليلا شريعة الإسلام ولا نصدر أحكامنا الجزافية عليها ؟ إن الإسلام لا يرضى بالطغيان ولا الطاغوت .. لذا ، فإن معيشة ذكر وأنثى معاً رغم أنفهما فيه من الطغيان والطاغوت ما لا يقره أحد فضلا عن الإسلام ، وقدم لنا الإسلام الحكيم مبدأ متقدما منذ أربعة عشر قرنا حين قدم لنا هذه الصورة المشرقة العادلة ، حين طلب التحكيم بين الزوجين المتنازعين **(وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ،إن الله كان عليما خبيرا)**(١) ثم لنرى سماحة هذا السلوك الإســـلامى الرفيع **(وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ، ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه)**(٢). وعلى اتساع الآيات القرآنية نستطيع أن نلمس هذا النمط الراقى من التفكير الإسلامى فى رفع الغبن عن كل الأطراف ، وتحقيق العدالة للجميع متوافقاً مع الفطرة الإنسانية عاملا على إشباعها اشباعا سليما ومتزنا ومستقيما .

---

(١) النســاء : الآية ٣٥ .

(٢) البقرة : الآية ٢٣١ .

بعدئذ نتساءل هل الطلاق فى الشريعة الإسلامية عقبة فى سبيل تطورنا الحضارى ؟ لعلى قد استطعت الإجابة ؟ .

— ٥ —

لنقف قليلا أمام ما يثار حول تعدد الزوجات من كونه علامة على التأخروالتخلف .. ومعاداة النطور .. وأود أن أوضح سلفا أن طبيعة العصر وسيادة النزعة الانتهازية فى مجتمعاتنا تجعل من الصعب على المرء — ولو كان غنيا — أن يعدد زوجاته بسهولة . فنحن امام ظاهرة المغالاه الفاحشة فى المهرر ، وأزمة المساكن ، وتأصل العادات والتقاليد السيئة فى أذهان الكثيرين الذين يصرون على الاهتمام بالمظاهر والسطحيات التى تكلف الكثير من المال ، وهذه الظاهرة أصبحت تتسبب فى تأخيرالزواج بين الشبان إلى سن تكاد تصل ببعضهم إلى مرحلةالكهولة ،ومن يدرى فربما تتلاحقهم حتى الشيخوخة ! !

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن انتشار الوعى والتعليم وأجهزة الإعلام جعل من ظاهرة تعدد الزوجات مسألة لاتكاد تذكر فى المجتمع ، لأنها منتشرة بين عدد ضئيل جداً إذا قارناه بنسبة السكان . .

إذاً فإن اعتبار هذه الظاهرة مظهرا للتأخر الحضارى أو عقبة فى سبيل التطور يصبح عبثا وجهلا بالوقائع الاجتماعية وظواهر المجتمع .

أما ظاهرة التعدد فى ذاتها ، فإنها تعبر عن أسلوب الشريعة فى معالجة مطالب الإنسان معالجة تتفق مع فطرته ، كما أسلفنا فى أكثر من موضع ،

إذ أن الإسلام يجعل لبعض الناس الذين تحتم عليهم الضرورة الإنسانية البناء بزوجة أخرى أو أكثر ، الحق فى هذا مع اشتراط العدل بين الزوجات ، وإذا تعذر العدل فلا . . قال تعالى : **(فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا)**[1] .

ولنفترض أن رجلا ما تفرض عليه طبيعتهالإنسانية أن يحتاج إلى زوجة أخرى ثم حرمنا عليه هذا مع استطاعته العدل ، ماذا ستكون النتيجة ؟ إن النتيجة بالضرورة ستكون بناءه بزوجات أخريات ، ولكنهن للأسف زوجات غير شرعيات ، وحينئذ نكون قد كسرنا رقبة النظام الاجتماعى السليم ، واضطررنا للفوضى رغم أنفنا ، ويصبح من المحتم علينا أن نقوم بثورة لتصحيح هذه الأوضاع المطلوبة التى

---

(١) النساء الآية ٣ – وسوف أنقل هنا ما ورد فى كتاب الأستاذ وحيد الدين خان – الإسلام يتحدى – يقول عن نشرة احصائية للأمم المتحدة عام ١٩٥٩ بشأن المواليد أثبتت أن العالم يواجه الآن مشكلة أن الحرام أكثر من الحلال

وجاء فى هذه الإحصائية أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفعت إلى ستين فى المائة . وأما فى بعض البلاد ، وعلى سبيل المثال « بناما » فقد وصلت هذه النسبة إلى الخمسة والسبعين فى المائة، أى أن ثلاثة عن طريق الحرام من كلأربعة مواليد! وأرفع نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعين فى أمريكا اللاتينية ، وتثبت هذه النشرة أيضاً أن نسبة الأطفال غير الشرعين تصل إلى الدم فى البلدان الإسلامية إن نسبة هؤلاء الأطفال أقل من واحد بالمائة فى جمهورية مصر العربية مع أنها أكثر البلاد الإسلامية تأثراً بالحضارة الغربية ويقول محرر النشرة أن البلاد الإسلامية محفوظة من هذا الوباء لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات » راجع ص ١٤٨ – ١٤٩ » .

تتعارض مع الفطرة الإنسانية كما فعل الإيطاليون مع مشروع إباحة الطلاق .

وثمة حالات يمر بها المجتمع تفرض عليه أن يتكافل ويتضامن ويضمد جراحه بنفسه ، ولو نظرنا مثلا إلى حالة الحرب وما يتخلف عنها من استشهاد العديد من الرجالات يتركون وراءهم زوجات فى نضارة العمر وزهوته ! إن الإسلام الحنيف يهيب بنا أن نتقدم لنضم هؤلاء الزوجات الحزينات على فقد أزواجهن ، ونعوضهن لوعة الخسارة التى لحقت بهن . . وهذا بالطبع أفضل كثيرا من تركهن يهددن حياتهن وحياة المجتمع بطرق غير مشروعة تتنافى مع الانضباط الاجتماعى والاتزان الخلقى خاصة وأنهن فى ذلك الحين يتمتعن بالكثير من الشباب والحيوية والرغبة الصاخبة .

ثم ينبغى ألا ننسى أبداً أن الإسلام قد جاء والتعدد قائم بلا حدود ولا قيود ، فنظمه وقومه بما يحقق العدل ويصلح المجتمع .

أليس من الأفضل اتباع ما جاء فى شريعتنا ودراسته بعمق وحكمة واتزان ؟

— ٦ —

ما يقال عن المواريث يجب أن يفهم على أساس أن الشريعة الإسلامية أناطت بالمسلمين إقامة العدل فى أرض الله ،وأن تسود فيما بينهم شريعة العدل . . والميراث كما أوضحته الشريعة الإسلامية كفل هذا العدل بين الوارث والمورث — وبين الورثة أنفسهم ، فأعطى كل وارث ما يستحق بقدر صلته بالمورث وقرابته له ، وبقدر تكليفه وواجباته

إزاء الآخرين . . فإذا جاء من يقول لنا إن المرأة يجب أن تتساوى بالرجل فى كل شئ حتى الميراث ، فإننا نقول له ، وهل حقاً تتساوى المرأة بالرجل تماما ؟ إن التساوى لا يكون إلا فى الأشياء المتماثلة رجل = رجل ، امرأة = امرأة ، لأن خصائص الرجل وطبيعته تختلف عن خصائص المرأة وطبيعتها . والذى نفهمه أن هناك علاقة تكامل بينهما ، إذ لا يمكن إعمار الكون بأحد الطرفين دون الآخر لو افترضنا ضرورة المساواة بينهما ، فكل منهما له واجبه الذى يؤديه ويشارك به مع الآخر فى بناء المجتمع . . لأن أيا منهما لا يستطيع أن يستغنى عن رفيقه والانفراد وحده . . وحينئذ أى عند الاستغناء والانفراد — ستتغير الطبيعة وتذبل الرغبة الحيوية ، وتضحى الحياة غير الحياة ، والأحياء غير الأحياء .

وقد اقتضت علاقة التكامل هذه أن ترمى على كاهل الرجل بالعمل المنتج المربح والإنفاق على المرأة ، ومن ثم فإن حصول المرأة على نصف ما يأخذه الرجل أو أقل منه أو أكثر إنما هو لطبيعة العلاقة الإنسانية بينهما .

(تلك حدود الله ، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك الفوز العظيم . ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين)[1] .

---

(١) النساء الآيتان ١٣ ، ١٤ .

وأود هنا أن أقتبس بعض ما قاله الدكتور على عبد الواحد وافى فى هذا الشأن : « لا يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له ، أوحيث تدعو إلى هذه التفرقة مراعاة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها ، وإليكم مثلا تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة فى الميراث إذ يقرر أن المرأة لها فى معظم الأحوال نصف نصيب الرجل المساوى لها فى القرابة ، فقد بنيت هذه التفرقة على أساس اقتصادى سليم ، بنيت على أساس التفرقة بين أعباء الرجل واعباء المرأة وذلك أن مسئولية الرجل فى الحياة أوسع كثيرا من مسئولية المرأة وأعباؤه فيها أشق وأثقل كثيراً من أعباء المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة ، وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها ، على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها ، فنفقتها واجبة على أبيها أو ولى أمرها مادامت غير متزوجة ، ونفقتها ونفقة بيتها وأولادها واجبة على زوجها بعد زواجها ، لا فرق فى ذلك بين أن تكون موسرة أو معسرة ، فاقتضت العدالة إذن أن يكون نصيب الرجل من الميراث أكبر من نصيب المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه الأعباء الثقيلة التى وضعها الإسلام على كاهله وأعفى المرأة رحمة بها وحدبا عليها وحفاظا على سعادة الأسرة ، بل إن الإسلام قد بالغ فى رعايته للمرأة إذ قرر لها نصف نصيب نظيرها من الرجال فى

الميراث مع إعفائه إياها من جميع الأعباء ووضعها جميعا على كاهل الرجل »[1] .

إلا أن الإسلام بالقياس إلى غيره من الديانات أو الشرائع أو الفلسفات قد أعطى للمرأة حقوقها كاملة غير منقوصة ، ونستطيع أن ندرك الفارق لو سمعناهم فى الزمن القديم يتكلمون عن المرأة كأنها نجس أو شيطان أو مخلوق لا يستحق التعلم أو الاطلاع على المعرفة أو المشاركة فى الرأى والعمل خارج البيت ، ولن نستغرب الآن ما تدعو إليه بعضهن فى الولايات المتحدة من دعوة للحياة كما تحيا المرأة الشرقية (يقصدن المرأة الإسلامية) .

إذاً فهل يوصم الإسلام بأنه عقبة فى سبيل التطور لأنه أعطى المرأة نصف الرجل فى الميراث ؟ إنى أرجو الباحثين المتأثرين بثقافة أوربا أن يتمهلوا حين يدرسون الإسلام ويفهمون أحكامه ، وسوف يتضح لهم سلامة المنهج الإسلامى ووضوحه .

— ٧ —

لا يمكن للمرء أن يجيب فى هذا المجال الضيق عن كل التساؤلات التى يطرحها البعض إمعانا فى كراهية الإسلام واسمه . ومكابرة فى القراءة والفهم لأصوله وأحكامه فضلا عن منهجه ولكننا نود أن نشاركهم الرأى فى أننا بحاجة إلى ثورة من أجل الدين، وليست ثورة دينية

---

(١) محاضرات الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الإسلامى الجزائى جمادى الثانية ١٣٩٠ هـ ص ٣٥ .

كما يعتقدون، إذ أن البون بينهما شاسع للغاية ، فالثورة من أجل الدين تعني أن هذا الدين قد انتهكت حرماته ، واعتدى على حدوده العالمية ، واحتلت بعض المناطق أو معظم المناطق داخله من قوى خارجة عليه ، ومتربصة به . أما الثورة الدينية فتعني أن الدين ذاته يجب أن يتغير ويستبدل بما يصلح بديلا عنه ليرضى الطبيعة الإنسانية ، والظروف الاجتماعية التي تفرض على الثائرين القيام بثورتهم والتضحية في سبيلها ، واعتقد أننا لسنا بحاجة إلى هذه الثورة ، لأن طبيعة الإسلام كما أسلفنا قد تواءمت إلى درجة مدهشة مع طبيعة الإنسان وفطرته الحية . . لم تتعارض معها قط ولم تغرر بها ، إذ أنها أقامت من ذاتها سياجا يحمى الفطرة والطبيعة معاً . وكل ما يخالف ذلك فليس من الإسلام الأصلى بشيء ، ونقول الإسلام الأصلى الذى يعتمد على الكتاب والسنة المطهرة ، فقد دخلت إلى الإسلام كثير من مظاهر التزييف والتزوير والترخص في فهمه بل والغباء في فهمه أيضا ،والتفسير لصالح الحكام وأغراضهم الشخصية . . . . الخ . كل هذا يتنافى مع الفكرة الإسلامية في جوهرها الأصيل .

إن الثورة الدينية التي قام بها مارتن لوثر زعيم البروتستانتية المحدثة ، كانت نتيجة لقصور شديد في المذهب الكاثوليكي ،وقد استطاع «لوثر» أن يقود ثورة للتحرر من مبادىء هذا المذهب وتعقيداته وتفسيراته وراح يقود الجماهير التي تلظت بالمعاناة الروحية؛ من أجل الانطلاق والانعتاق من أسر الجمود والخرافات التي لا تستقيم مع الفطرة والطبيعة البشرية . وقد تمخض عن ثورته هذه ما عرف بالمذهب « البروتستانتي » . ولكن

أيا كانت نتائج هذه الثورة، فإن أحدا لا يستطيع أن يقول إنها قد حققت طموحات الإنسان الاوربى فى الاستقرار النفسى والاطمئنان الروحى ، فمازال الإنجليز غارقين فى نوع جديد من الوثنية : يستعبدهم رأس المال والقيم المادية ، ويفتقدون العلاقات البشرية والحمية والاتزان الاجتماعى والسياسى . .

فهل يفكر بعضنا فى القيام بثورة تشبه هذه الثورة ؟

إن أى عاقل لا يفكر فى هذا الموضوع إطلاقا ، ولكنه يتجه بتفكيره إلى واقع هذا الدين الإسلامى ، وينظر بالطول وبالعرض إلى ما كان وما سيكون فضلا عما هو كائن . .

لقد كان مسلمو العصر الأول . . أو الطليعة الإسلامية — يملكون ذواتهم فقط ، وبهذه الذوات المؤمنة المتمكنة استطاعوا أن يذهلوا القوتين العظميين حينئذ — فارس وروما — وينتشروا إلى الآفاق يجوبونها فاتحين وهادين ومرشدين ، ومخلصين الشعوب من نير العبودية وأغلال القهر والمهانة والمذلة . ولكنهم — ياللهول — تراجعوا — بعد ذلك العصر الزاهر — وانكسروا ، ودالت دولتهم وأصبحوا مجموعة من الدول لاحول لها ولا طول ، يطأ أرضها الغريب ، ويحتل أوطانها الأجنبى !

حتى العصر الراهن ، ورغم ماحققته هذه الدول الإسلامية من إنجازات مظهرية فى الاستقلال السياسى ، وبما تملكه من ثروات مذهلة ، فإنها لم تستطع أن تحقق ما يصبو إليه كل مسلم ، وما يرنو إليه كل مؤمن !

فهى على فرقتها – لم تزل – وعلى تباين اتجاهاتها وسياساتها لم تزل – وعلى تخاذل معظمها وتقاعسها عن نصرة الحق والجهاد لا تريم !!!

إن أى مسلم يشعر بالفخار والعزة يوم يتحرك المسلمون بإمكانياتهم وقدراتهم ومواهبهم فى ركب التطور العالمى والإنسانى ، بل وقيادة هذا التطور والسير قدما إلى الأمام باستمرار .

إن بعض الدول الإسلامية التى تتحرك بمبادرات فردية فى ميدان الفكرة الإسلامية دعما وتوجيها وكفاحا لتستحق كل تقدير وإعزاز . ولكن هل نتركها وحدها ونحن نقارب من نصف سكان العالم ونحتل مناطقه الاستراتيجية ؟ . . الإجابة بالطبع لا . . بل إنها تفرض علينا أن نتحرك ، وبمزيد من اليقظة والوعى حتى نحقق ما نصبو إليه ، ونعوض ما فاتنا وذهب منا .

ولن يكون ذلك إلا بالبحث عن سبب هذا البلاء الذى نعيشه ، والمحنة التى نحياها ، وفى اعتقادى أن هذا يجب أن يتشكل على صورة حركة تثور من أجل الدين وإجلاء الدخلاء على أرضه ، وتطهير ساحته من المعتدين .

– ٨ –

إن الواقع الدينى الراهن يثبت ما يلى :–

(١) تراجع الدين الإسلامى إلى مؤخرة الاهتمامات الحكومية فى البلاد الإسلامية ، باستثناء عدد قليل من هذه الحكومات ، يعتمد الدين فى اهتماماته وسلوكه .

(ب) إن الفهم الدينى على امتداد الساحة الجماهيرية غير واصل إلى اللباب . . وإن أغلب ما تفهمه الجماهير المسلمة وأكثرها الأعم، هو القشور فقط مختلطة ببعض الخرافات والإسرائيليات والتفسيرات الساذجة للدين .

(ج) إن معظم القائمين على أمر الدعوة الإسلامية والإرشاد الإسلامى غير مؤهلين فكريا وعلميا وسلوكيا لشرف هذا الأمر وخطورته .

(د) إن التعليم فى كثير من المجتمعات الإسلامية أصبح لا يلقى بالا للتعليم الشرعى باعتباره — فى عرفهم — أصبح نمطاً لا يؤهل لحياة معاشية كريمة ولرزق يتساوى أو يتناظر مع ما يحققه أى نوع آخر من التعليم ، فضلا عن تأثر سياسة بعض الدول الإسلامية بضغوط أجنبية تضع فى اهتمامها الأول محو أى أثر للدين الإسلامى ، وترحيله من ذاكرة المسلم حتى يصبح مسلما بالإسم فقط وليس بالوجدان وتهيئة لغزو فكرى يطيح بكل ما تبقى من آثار إسلامية ولو شكلية !

ومن ثم فإننا نرى كثيرا من وزارات التعليم تهمل تعليم الدين إهمالا شديدا حتى يصل الأمر إلى اعتماد منهج شكلى كنوع من ذر الرماد فى العيون ! !

الواقع الراهن للدين الإسلامى يقول بهذه الحقائق وغيرها . . إذاً ما العمل لـكى نغيرها إلى الوضع الأفضل الذى ينحو بالمسلمين إلى الحركة الإيجابية من أجل مستقبل أكثر إشراقا وبهجة ؟ الحق أن

هذا الأمر منوط بالحكومات الإسلامية ، خاصة بعد أن أصبحت فى وضع أفضل نسبيا بعد حرب رمضان ، فالتقطت أنفاسها ، وبدأت تأخذ زمام المبادرة لتقف وقفة واحدة شهد بها الكل أمام يهود والقوى الإجرامية العالمية . . لقد أثبت المقاتل المسلم وهو يهتف باسم (الله أكبر) أنه يستطيع أن يحرز كثيرا من النجاحات لو توفرت له الوسائل . وأثبتت الثروة الإسلامية دورها فى وقف الإجرام العالمى عند حدوده ،وفرض التفكير عليه فى مستقبل هذه القوة الجديدة التى بدأت تثبت وجودها بعد طول سبات عميق، كما أن مؤتمر لاهور(٢) الذى اجتمع فيه قادة العالم الإسلامى وانتهى بنجاح لا ينكر ، قد أبرز دور الوحدة الإسلامية القوية فى هز أركان الطاغوت العالمى ، وتنبيهه إلى خطر تصرفاته الحمقاء إزاء القوة الإسلامية . .

بيد أننا للأسف لا نستطيع أن نتيقن تماما من تجاوب الحكومات المعنية فى مثل هذه المسألة ، إذ أن بعضها مازال محكوما بضغوط كثيرة ومتعددة ، ومع ذلك فلا مندوحة من القول بأن الجماعات الإسلامية المستنيرة يقع عليها عبء الإلحـــاح المستمر والتنبيه الدائم ، والأذان فى كل وقت لدعم الفكرة الإسلامية من قبل الحكومات والهيئات ، وتنشئة دعاة أكفاء يستطيعون أداء دورهم باقتدار ، وتعديل مناهج التعليم بما يزرع فى عقول الناشئة والشبيبة مفاهيم صحيحة

---

(١) نود أن ننبه مرة أخرى إلى أننا كتبنا هذا الكلام قبل الأحداث الأخيرة التى أعادت العالم العربى من جديد إلى الدائرة المفرغة من العجز والتفرق والتناحر !

(٢) انعقد المؤتمر فى مدينة لاهور بالباكستان ـ المحرم ١٣٩٤ هـ ـ فبراير ١٩٧٤ .

وقوية وثرة للإسلام كما أن انعقاد المؤتمرات الإسلامية واللقاءات المستمرة للبحث فى الشئون الإسلامية عامل هام فى إثارة القضايا الملحة التى تبلور صورة الفكر الإسلامى الصحيحة ، وتزيل كثيرا من الشوائب التى علقت بها وترسبت فوقها .

إن واجب المفكرين الإسلاميين أن يخصصوا كل أوقاتهم للحث على اعتماد الإسلام الصحيح ، ليأخذ المسلم وضعه الطبيعى بين العالمين **(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين)**[1] .

صدق الله العظيم

---

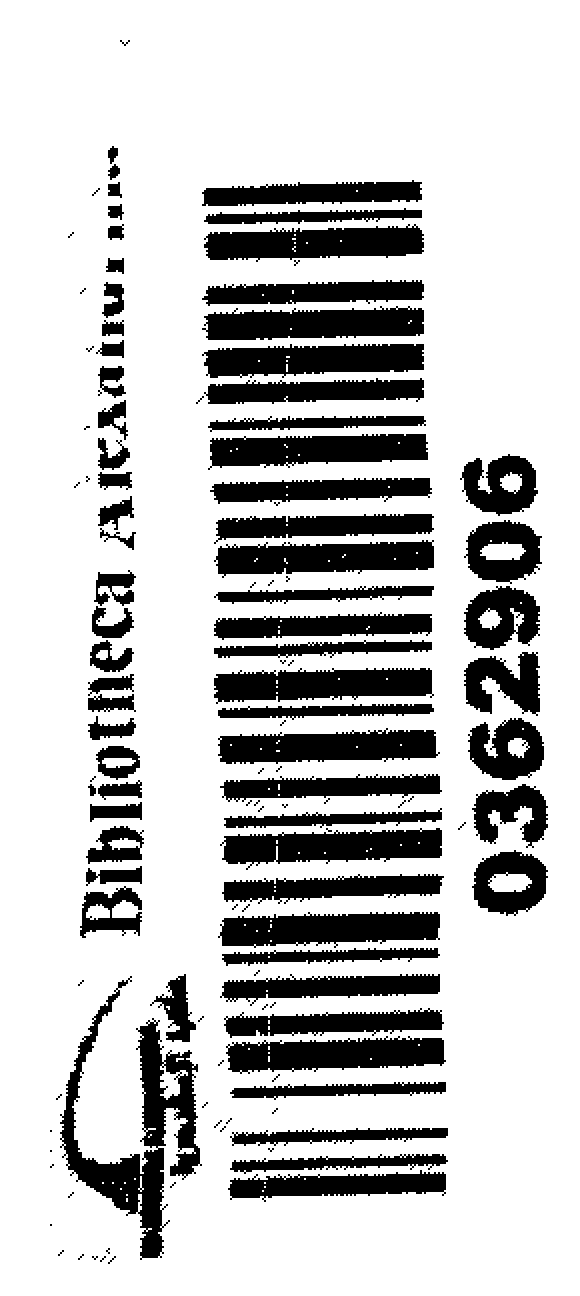
(١) يوسف : الآية ١٠٨ .

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

رقم الإيداع ٤٤٠٠ / ١٩٧٩

دار الاعتصام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة ٨ شارع حسين حجازى
تليفون ٣١٧٤٨



٥٠ قـــرشا